سلسلة الدراسات العقائدية 2

العقيدةُ الإسلاميّةُ في خَصَائِصِها

د. محمد مرتضى

مركز براثا للدراسات والبحوث
Baratha Center for Studies and Research

العقيدةُ الإسلاميّةُ في خَصَائِصِها

د. محمد مرتضى

سلسلة الدراسات العقائدية 2

العقيدةُ الإسلاميّةُ في خَصَائِصِها

د. محمد مرتضى

مركز تراث للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: 2024 م- 1446هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

ISBN: 978-614-480-989-1

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد
Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com
مدير المركز د. محمد مرتضى
009613821638

الفهرس

المقدمة 7

الفصل الأول 9

مَعنى الدِّين وسُبُل الوُصول إليه

المبحث الأوّل

10 | **ماهيةُ الدِّين**

أولاً- مفهوم الدِّين لغةً واصطلاحًا 10

ثانيًا- الرُّؤيّة الكونيّة والأيديولوجية 11

ثالثًا- الرّؤية الكونيّة الإلهيّة والماديّة 11

رابعًا- الأديان السَّماويّة وأصولها 12

خامسًا- الأصول الدِّينية والأصول المذهبية 13

المبحث الثاني

13 | **كيفية البحث عن الدِّين؟**

أولاً- تمهيد ضروري 13

ثانيًا- الدَّوافع العامّة 14

الفصلُ الثّاني 21

العقيدةُ والرؤية الكونيّة

المبحث الأوّل

22 | **ماهية العقيدة.. طبيعتها، وأهمّ مذاهبها**

المبحث الثاني

22 | **الرؤية الكونية والعقائدية، معناها وأنواعها**

أولاً- أنواع الرّؤى الكونيّة والعقائد 23

المبحث الثالث

33 | **أبعاد الوجود في الرّؤية الكونيّة الإسلامية**

أولاً- ماهيّة الإنسان 34

ثانيًا- قيمة الإنسان 34

ثالثًا- عالم الغيب والشهادة 38

رابعًا- هل من علاقة بين عالَمي الغيب والشهادة، وما طبيعتها؟ 39

خامسًا- عالم الدُّنيا والآخرة 42

سادسًا- الله مبدأ العالم وجوهره 43

سابعًا- معرفة الله بصفاته 44

ثامنًا- الوحدانية أهمُّ الصِّفات 45

تاسعًا- ما هي المُميّزات التي يتميَّزُ بها عالَمُنا المادّيُّ، وكيفَ ندركُه؟ 47

عاشرًا- العالم المَحسوس 47

المبحث الرابع
طرق الوصول إلى الرؤية الكونية الإسلامية | 49

أولاً- الموضوعية ونبذ التقليد 49

ثانيًا- مصادر التَّفكير في الإنسان 51

ثالثًا- مقولة «عليكم بدين العجائز» 52

رابعًا- نظرية العرفاء 54

خامسًا- ترجيح القلب لا إلغاء العقل 54

سادسًا- نظرية أهل الحديث 55

سابعًا- الوحي وأهمية استعمال العقل 57

المبحث الخامس
أهمّ آثار الرؤية الكونيّة الإسلاميّة | 60

أولاً- أهمية الإيمان الدِّيني في حياة الإنسان 60

ثانيًا- آثار الإيمان الدِّيني ونتائجه 62

المَصَادر والمراجِع 75

المقدمة

نتعرَّفُ في هذا الكتاب إلى معنى العقيدة وأهمّيتها، ودورِها في حياة الإنسان، وإلى العوامل التي أدَّت إلى نشوء العقائد المختلفة والرؤى المتعدِّدة حول أسئلة الوجود والمصير.

يُقدِّم لنا هذا الكتاب نظرة كلِّية حول العقيدة الإسلامية، فهي تمُثِّل خارطة الطريق للدروس اللاحقة، فتَدلُّنا على ما ينبغي أن نتعرَّف عليه في الحياة، لكي نتمكَّن من بناء حياة سليمة، تُوصل إلى السعادة المُطلقة. ولا تكتفي العقيدةُ بتقديم نظرة عامَّة، بل تُوجِّهنا إلى كيفية الوصول إلى هذه الرؤية الكونية الأصيلة، وتسعى إلى تجنيبنا كلَّ أشكال الحيرة والضياع، من خلال الإشارة إلى الموانع التي تحول دون وصول الإنسان إلى القاعدة الفكرية المتينة، أو التي تؤدِّي إلى ضلالته، وعدم اهتدائه إلى الحقيقة.

الفصل الأوّل :

مَعنى الدِّين وسُبُل الوُصول إليه

■ المبحثُ الأوّل - ماهيةُ الدِّين

أولًا-مفهوم الدِّين لغةً واصطلاحًا:

تأتي كلمة «الدِّين» في اللُّغة[1] بأكثر من معنى، كالطّاعة، يقول -عز وجل-: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾[2]، والجزاء[3]، يقول عز وجل:﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[4]، ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾[5] أي يوم الجزاء[6]..

وفي المعنى الاصطلاحي: يُعرَّف الدِّين بأنه الإيمان بخالق ومُدبِّر الوجود والكون والإنسان، وضرورة الالتزام الكامل بل ما يترتَّب على الإقرار الإيماني به عز وجل من الأحكام والوظائف والأدوار والمهام العملية في علاقة الإنسان بذاته وبمحيطه مع غيره.

وهناك شقَّان أو جانبان للمعنى الاصطلاحي للدين، هما:

1 - الجانب العقائدي، وهو قاعدة الإيمان الجوهرية، ويُسمَّى بـ(أصول الدِّين).

---

1 - انظر: محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001م، مادّة: دين، ج18، ص214.

2 - سورة يوسف/76. ملاحظة: المراد هنا بالدِّين شريعة الملك وقانونه.

3 - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الأعلمي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، 1973م، ج20، ص368.

4 - سورة الفاتحة/4.

5 - سورة الماعون/1.

6 - تفسير الميزان، م.س.، ج20، ص368.

2 - جانب الأحكام والتَّعاليم التي تترتَّب على الإيمان بالعقيدة وأُسُسها ومقوِّماتها، ويشتمل هذا الجانب على ما يُسمى بفروع الدِّين.

ثانيًا- الرُّؤيّة الكونيّة والأيديولوجية:

لقد جرى استعمال مفهوم أو مصطلح «الرّؤية الكونيّة والأيديولوجيّة» بمعانٍ عدَّة، تفيد المضمون ذاته.. ومن جملة ما يعنيه مفهوم الرؤية الكونية بمعانيه المُتقاربة العديدة:

1 - منظومة الأفكار والاعتقادات والرُّؤى النظرية المقدمة من صلب الفكر الدِّيني بشأن كل ما يتعلَّق بالوجود والحياة والكون.

2 - مجموعة من الأفكار والانطباعات والرؤى الشاملة المقدَّمة - ضمن تناسق موضوعيٍّ- عن واقع حياة الإنسان وأفعاله وسلوكه ومجمل تحدِّياته وأعماله وإشكالياته الوجودية والحياتية.

وبهذا يتَّضح أن المنظومة العقائدية لكلِّ دينٍ هي التي تُكوِّن رؤيتَه الكونية المعرفية الأيديولوجية، وأما نظام أحكامه العمليَّة الكليَّة فهو يتمثَّل في إيديولوجيَّته، وهذا ما يُعبرَّ عنه بـــ: أصول الدِّين وفروعه.

ولكن في بعض الأحيان قد يُستعمَل مصطلح «الأيديولوجية» للدلالة على المعنى العام المشتمل على الرُّؤية الكونيَّة والأحكام العمليَّة معًا.

ثالثًا- الرّؤية الكونيّة الإلهيّة والماديّة:

يمكننا تقسيم الرُّؤى الكونية المنتشرة في أوساط الناس إلى قسمين: الرُّؤية المستندة للفكر الدِّيني الإلهي القائم على الغيب والإيمان بوجود

الله، وتُسمى (الرُّؤية الكونية الإلهية)، والرُّؤية المستندة للفكر المادِّي الذي لا يُؤمن بالغيب ولا بوجود إلهٍ خالق للكون، وتُسمى (الرُّؤية الكونيّة المادِّيّة). ويُطلَق على الإنسان المادي المُؤمن بهذه الرُّؤية اسمُ «الطَّبيعي»، و«المُلحد»، وفي عصور سابقة كان يُسمَّى «الدَّهري» و«الزِّنديق».

رابعًا- الأديان السَّماويّة وأصولها:

الدِّين فطرة بحسب تعاليمنا الإسلامية، ومنذ أن وُجد الإنسان على هذه الأرض كان الدِّين ملازمًا له في كلِّ وجوده.. وقصة سيِّدِنا آدمَ أبي الأنبياء معروفةٌ في أنَّه دعا للتوحيد وعدم الشرك بالخالق العظيم.. وجاءت دعوتُه لمواجهة الشرك الذي بدأ بالظهور نتيجة الجهل وهيمنة المصالح والأهواء الخاصة.. وكل الأديان دعَت للإيمان ورفض الكفر والشرك، ويمُكن أن نُحدِّد هنا الأمورَ المشتركة بين الأديان التَّوحيديّة في ثلاثة معالم وأصول كُلِّيّة هي:

1 - الإيمان بالله خالق الكون والوجود والحياة.

2 - الإيمان بالآخرة والمعاد، حيث الحياة الخالدة والعدل المطلق.

3 - الإيمان بالنُّبوات والرُّسُل والأنبياء الذين أرسلَهم الله عز وجل للهداية والاسترشاد لِما فيه خير الناس وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة.

إن هذه المعالم والأصول العقائدية -التي يَنصُّ عليها الدِّين- تمثِّل إجابات حقيقية حاسمة على أي سؤال يمكن أن يسألَه الإنسانُ فيما يتعلَّق بمن خلق الكونَ والحياة، وماهية نهاية الوجود والحياة، والمصير الذي سيُواجهه البشر.. وطبيعة السُّبُل الأفضل والأجدى لمعرفة أرقى نظام للحياة.

خامسًا- الأصول الدِّينية والأصول المذهبية:

قلنا سابقًا إنَّ للدين أصولاً ثلاثة هي: الإيمان بالله (التوحيد)، والإيمان بالنبوة، نبوة الرسول الكريم محمد(ص)، والإيمان باليوم الآخِرِ (المَعاد). ويُعدُّ كلُّ إنسان غير مؤمن بهذه الأصول الدِّينية غيرَ مسلم، أي خارج عن مِلَّة الإسلام والمسلمين.

ويمُكن أن نُضيف كلاًّ من العدل والإمامة، كأصلين مستقلين من أصول الدِّين الأساسية، لأنَّهما مُعتقَدان نشئا تحت ظلِّ الأصول الثلاثة السابقة، ويمُكن عدُّهما من العقائد أيضًا وَفقًا لمعايير خاصة.

من هنا تشترك كلُّ الأديان بعقائد مشتركة هي أصول الدِّين المعروفة (توحيد - نبوة عامة - مَعاد)، ولكن في ديننا الإسلامي تُضاف بعضُ الأصول الخاصة فنُسمِّيها بـــ «أصول الدِّين الإسلامي»، وأيضًا عندما تتمُّ إضافةُ بعض العقائد التي يختص بها مذهب من المذاهب تُسمَّى الأصول وقتها بـــ «أصول الدِّين والمذهب».

■ المبحث الثاني- كيفية البحث عن الدِّين؟

أولًا- تمهيد ضروري:

لا يمُكنُ لأيِّ إنسان عاقلٍ سويِّ الفطرةِ أنْ يتصرَّفَ أيَّ تَصرُّف في حياته من دون تخطيط ووجود غاية تُشكِّل بذاتها دافعًا ومُحرِّكًا لأي فعل أو سلوك.. فعلى سبيل المثال، عندما يريدُ أيُّ إنسان أن يَحصل على طعامه، فهذا الفعل له دافعٌ هو الجوع.. فالدَّوافع هي القاعدة لحركة الإنسان في الدُّنيا، وهي نَزَعات جَوَّانيّة فِطرية أودَعَها الله عز وجل في الإنسان..

ولكن هنا نسأل: هل هناك دوافع فطرية أخرى تتعلق بموضوع وجود الإنسان وغايته في الحياة؟ ومن خلقه؟ وإلى أين المسير والمصير؟

نعم هناك دوافعُ فطرية تُثير تلك الأسئلة، وتحاول البحثَ عن إجابات لها وفقًا للدين ومعناه، لا بدَّ من السَّعي الحثيث باتِّجاهها..

لقد جعل الله لكلِّ إنسان في فطرته كثيراً من الدَّوافع العامَّة، من أهمها دافعٌ فطريٌّ للبحث عن الدِّين ومعناه، وضرورة معرفته والوقوف على ما يُقدِّمُه من معانٍ وإجابات على كثير ممَّا يهجس به ويَعيشه ويَستفسر عنه..

ثانيًا- الدَّوافع العامّة:

الدافع الأوَّل- غريزة حبِّ الاستطلاع:

يُعَدُّ هذا الدافع الفطريُّ من أهمِّ خصائص النفس البشرية، وهو يَدفع الإنسانَ ليستكشف حقائق الوجود والحياة، ويُحاولَ التعرُّف على طبيعتها، والبحثَ عن معانيها، فينظر ويتأمَّل، ويطرح الأسئلة، ويفكر ويقف على المعاني، محاولاً البحث عن الحقائق، وعلى رأسها حقيقةُ «الدِّين الحقّ».

وتَقف على رأس تلك الأسئلة، التي تَطرحُها الدَّوافع الفطرية الباحثة عن المعرفة، سؤالٌ عن الوجود ومعناه، خاصة ذلك الوجود الآخَر غير المعروف وغير المنظور، أي عن الوجود الغيبي غير المادي..!!. وطبيعة العلاقة القائمة بين الوجود الغيبي غير المادي والعالم الحسيِّ المادي الملموس..!!. وما هي الغاية من وجود الإنسان؟ وهل تنتهي رحلةُ حياته بمجرَّد موته وتَحوُّله إلى رَماد؟ أم أن هناك حياةً أخرى، ما طبيعتُها؟ وما نوعُها؟ وهل من علاقة وصِلةٍ بينها وبين حياة الإنسان في الدنيا؟ وإذا ما

كان هناكَ رابطٌ بينهما، وما هي المظاهر والأعمال التي لها تأثير حقيقي في شؤون الآخرة؟ وما هي الطريقة الأفضل لمعرفة النِّظام الأرقى والأجدى والأكمل لهذه الحياة، الذي يُحقِّق للإنسان سعادةَ الدَّارين؟!.. إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة التي يُثيرها دافعُ الفطرة البشري في بحث الإنسان عن حقيقة وجوده..!!.

الدّافعُ الثّاني-غريزةُ جلبِ المنفعة والأمن من الضّرر:

حتى يتمكَّنَ الإنسانُ من الوصول لحاجاته الطَّبيعيّة، وبنفس الوقت يُشبِعُ دَوافِعَه الفِطريَّة، لا بدَّ من أن يكون مُلمًّا ببعض الأفكار والمعارف الخاصّة التي يزن بها الأمور، ويَعرف ما يُمكِنُ أن يَجلب له الخيرَ والنَّفعَ، ويُبعِدُه عن الشَّرِّ والضَّرر.. والدِّين مجالٌ جوهريٌّ وأساسيٌّ يَنشدهُ الإنسان على هذا الصَّعيد، حيث يعتقد أن الدِّين يُعطيه معنى وجوده، ويُوفِّر له النَّفعَ والخيرَ الذي يتطلَّع إليه، ويُحقِّق له الأمنَ والهدوء النفسي والاستقرار الحياتي.

هاجس وشبهة مردودة:

قد يعتقدُ بعضُ الناس –ممَّن لا ينفتحون كثيراً على البُعد الدِّيني- أن الدافع عند الإنسان (للبحث والاستكشاف وغير ذلك) لا يُمكن أن يكون قويًّا وفاعلاً، وله قدرة على التأثير، إلا إذا شعر صاحبه أن احتمال تحقُّقه عالٍ وقويّ.. وفي نظرهم أنَّ هذا الاحتمال ضعيفٌ في موضوع البحث والتقصِّي عن الدِّين، ولهذا من الأفضل -كما يروْن- أن يشغل المرءُ نفسَه

في البحث عن قضايا لها درجة تَحَقُّق عالية، خاصة قضايا العلوم المُعتمِدة على البعد الحسيِّ التَّجريبي...

ولهؤلاء نقول:

أوّلًا: هناك فارقٌ بين معالجة المسائل الدِّينية والمسائل العلمية، من جهة وسائلِ التَّحقُّق، واحتماليّةِ النَّتائج، والزَّمن اللازم للإثبات، ولهذا كانَ من المُمكن جدًّا للمسائل العلمية أن تحتاج لزمن أكبر لكي تتحقَّق وتصبح أمرًا واقعًا، أي أنَّ الدافع المتعلِّق بها يجب أن يكون ضعيفًا لأن الزَّمن طويلٌ..!!. خاصة أنَّها تحتاج لتجارب قد يمتدُّ زمنُها لسنوات عديدة وجهود متراكمة مُضنية.. أمَّا المسائل الدِّينية فهي قد تُعالَج باحتمال تحقُّق كبير، أي أن الأملَ في حلِّ إشكاليتها ومعالجتها ليس ضعيفًا، بل هو أملٌ ربمَّا أكبر من المسائل التَّجريبيّة..

ثانيًا: إن الدَّافع لا يتعلَّق فقط بدرجة تحقُّق الفِعل فقط، بل أيضًا بطبيعة المنفعة المترتِّبة على الفعل، وهذا أمرٌ حاضر بقوة وشِدَّة في الموضوع الدِّيني، المتعلِّق ببحث الإنسان عن معنى وجوده وحياته والغاية منها.. وهذا دافع ومُحرِّضٌ كبير للبحث في القضايا الدِّينية وما يترتَّب عليها..

الدَّافعُ الثالث- ضرورة شُكر المُنعِم على نِعَمه:

يَحكمُ العقلُ الفطريُّ للإنسان بواجبِ شُكر مَن أنعَمَ عليه نعمةَ الحياة والوُجود، ووفَّر له سُبُلَ العيش وإمكاناته.. وهي نِعَمٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى، ولا يُمكن لأيِّ إنسان سَويِّ العقل والتَّفكر إنكارُها، أو غضُّ النَّظر عنها.. وهذا يقتضي أن يشكرَ الإنسانُ المُنعِمَ على كرمه ونِعَمِه، يقول -عزّ وجلّ-: ﴿**هَلْ**

جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[1].. والشُّكر لا يمُكِنُ أن يتجسَّد ويتحقَّق من دون معرفة المُنعِم، وهو الله -عزّ وجلّ-.. والمعرفة تكون بالبحث عنه -تعالى- في صفاته وأفعاله من خلال الدِّين.

الدّافع الرابع- غريزة حبّ الكمال:

فُطرَت نفسُ الإنسان على السَّعي للكمال، والبحث عن المبادئ العليا وما يتَّصل بها من صفات وأفعال والتزامات.. ولكن هذا المبدأ الفطري في التَّطلُّع الإنسانيِّ للكمال لا يمُكن أن يُنجَزَ إلا باختيار الإنسان نفسه لتصرُّفاته وأفعاله بصورة عقلية واعية وإرادة حُرَّة مسؤولة.. وهذا حكمٌ عقليٌّ.. إلا أن العقل لا يمُكنه تقييم سلوكيات الإنسان في كونها إيجابيةً وخَيِّرةً أم سلبيَّةً وشرِّيرة لوحده، بل لابدَّ من التوصُّل لمنظومة مبادئ أخلاقية وقِيميَّة، لها رؤيتُها الواضحة والصحيحة والمُثمِرة عن الكون والحياة، بحيث تستند على معرفة خالق الكون والحياة والوجود، الذي هو الله -تعالى-.. فهذه مسألة تجب معالجتُها لكي يستطيع الإنسان التحرُّك فعليًّا على طريق كماله المُمكن له..

الدّافع الخامس-فطريّة الشّعور الدِّيني:

رغم كلِّ ما قدَّمَه العلمُ الماديُّ من فتوحات كبرى في كثير من مجالات الحياة، إلا أنَّه في موضوع النفس والإنسان لم يتمكَّن إلى

1 - سورة الرحمن/60.

اللحظة من سبر أغوارها بالكامل، والعلماءُ الماديُّون -على وجه العموم - يَرَونَ أن الدِّين والعبادة أمران ثابتان في حركة الحياة، والإنسانُ عرفَ التديُّنَ والتوجُّهَ لإله ما منذ بدء وجوده على هذه الأرض، بما يَعني أن التديُّن والعبادة كلُّها أمور فطرية في عمق النفس البشرية، ولم تتمكَّن كلُّ حضارة الإنسان الماديَّة المُذهلة التي حقَّقها من حَرْفِ هذا البُعد الفطري الإنساني أو تغييره أو إلغائه.. يقول -عزّ وجلّ- في حالة التأكيد على هذا الدافع: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1].

تنويهٌ لا بدَّ منه:

رغم أن الدافع الفطري شامل وعامٌّ في كلِّ إنسان، وهو يُخلق معه، ولكنَّه قد يختفي لدى بعض الناس نتيجة انغماسِهم في الحياة الدُّنيا، وابتعادهم تربويًّا ومسلكيًّا عن معرفة الدِّين، وما يستلزمه من مقتضيات فكرية وعملية، وهنا تغيب الفطرةُ وتُحجَب ويَنحرف صاحبُها في ميوله وغرائزه عن مسارها الطبيعيِّ الفِطريّ.

المفاهيم الرئيسية:

● **الدِّين:** يعني الدِّين في اللغة الطاعةَ والخضوعَ، وفي الاصطلاح هو: الإيمان بوجود خالق للكون والحياة والإنسان، والالتزام بما يتطلَّبُه هذا الإيمان من أحكام وقِيَمٍ وسُلوكيات.

1 - سورة الروم/30.

- **الرؤية الكونيّة هي:** عبارة عن جملة الأفكار الاعتقادية النظرية التي تتحدَّث عن الوجود بصورة عامة.
- **الأيديولوجية هي:** جملة الآراء الكليَّة المتناسقة التي تتحدَّث وتبحث في سُلوكيَّات الإنسان. وقد تُستعمل في معنى الرُّؤية الكونيّة.. وهنالك رُؤيتان كونيَّتان، رؤيةٌ إلهيّة ورؤية ماديّة.
- **معالم الأديان السماويّة وأصولها:**

1 - الإيمان بالله الواحد.

2 - الإيمان بالنبوّة.

3 - الإيمان بالآخرة.

- **الأُصول الإسلامية:** وهي عبارة عن ثلاثة أُصول، التوحيد والنبوّة والمَعاد، ويمُكن أن نُضيف إليها أصلين آخرين هما: العدالة والإمامة، وهما من أُصول المذهب.
- **توجدُ في داخل الإنسان دوافعُ فطريّةٌ عامّةٌ تُثير لديه مَكامِنَ البحث عن الدِّين.. وهذه الدوافع هي:**

1 - غريزةُ حبِّ الاستطلاع: يُحاول الإنسانُ بموجبها التعرُّف على طبيعة الحقائق الكبرى المحيطة به، ومن أهمها وأبرزها حقيقةُ الدِّين.

2 - غريزة البحث عن المنفعة والأمن من الضَّرر.

3 - وجوب شُكر المُنعِم (الله -تعالى-): والشُّكر يتجسَّد فقط من خلال التعرُّف على المُنعِم، وهو أمر لا يتمُّ إلا من خلال الدِّين.

4 - حبُّ الكمال: إنَّ الكمالَ شعور فطريٌّ يتحقَّق من خلال سلوك الإنسان لسبيل الدِّين وضرورة معرفته.

5 - فطريّة الشُّعور الدِّيني: جعل الله -تعالى- الدِّينَ شعورًا ذاتيًّا فطريًّا في كل إنسان، ولكن قد يَغيب هذا الشعور لدى بعض الناس نتيجة عوامل خارجية تُؤثِّر على الفرد.

الفصلُ الثّاني:

العقيدةُ والرؤية الكونيّة

■ المبحث الأول- ماهية العقيدة.. طبيعتها، وأهمّ مذاهبها

تتقوَّمُ كلُّ مدرسة فكرية وكلُّ عقيدة معرفيَّة، يلتزم بها الناسُ، بمجموعة أفكار تمُثِّل نظرتَها للحياة والوجود والإنسان، وتفسيرَها ووعيَها للعالم من حولها، ويُطلَق على تلك الأفكار التفسيرية «رؤية كونية أو تصوُّر كوني».

ولا يوجد دينٌ من الأديان ولا مذهبٌ من المذاهب ولا مدرسة من مدارس الفكر الفلسفي والاجتماعي والسياسي إلا ويرتكز على رؤية كونية، يُطرَحُ من خلالها مجموعة مبادئ وأهداف، ويَسعى المُنضوون تَحتَ لوائها لتحقيقها، واضعين نصب أعينهم طُرُقَ التحقُّق ومدى إمكانيات هذا التحقُّق والواجبات والمحظورات التي تضعها والمسؤوليّات التي تفرضها، وكلُّها نتائج تستتبع بالضَّرورة التصوُّرَ الذي تتبنّاه تلك المدرسة تجاه الوجود والحياة والمصير[1]. وأما الحكمة فقد قسمها الحكماء إلى نظرية وعَملية. والحكمة النَّظريّة تعني: العملَ على فهم الكون كما هو كائنٌ، والحكمةُ العمليّة تعني فهمَ السّلوك الحياتيّ كما ينبغي أن يكون. وهذا الذي «ينبغي أن يكون» هو النّتيجة المنطقيّة لما «هو كائن».

■ المبحث الثاني- الرؤية الكونية والعقائدية، معناها وأنواعها[2]

يأتي معنى «الرّؤية الكونيّة» بمعنى المعرفة وليسَ بمعنى الإحساس..

1 - مرتضى مطهري، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيّار الجديد، لبنان/بيروت، طبعة عام 1985، ص5.

2 - مطهري، المفهوم التوحيدي للعالم، مصدر سابق، ص6. (بتصرّف).

و«المعرفة» مسألة عقلية عِلميَّة يختصُّ بها الإنسان ككائن عاقل أكرمه تعالى بها، فتكون مسألة «معرفة الكون» ممَّا يَختصُّ به هذا الإنسان دون غيره من باقي الكائنات، لارتباطها (أي المعرفة) بالتفكير والعقل والتأمُّل والتحليل والتركيب.. وهنا يكمن الفرق بين الإنسان والحيوان، إنه العقل. أما الإحساس بالكون فهو أمر مشترك بين الإنسان والحيوان: بل إنَّ هناك كثيراً من الحيوانات تتفوَّق في إحساسها على الإنسان، مثل باصرة العقاب، وشامَّة الكلب والنّملة، وسامعة الفأر، ولبعضها حواسٌّ يفتقدها الإنسان، مثل حاسّة الرادار الموجودة في بعض الأحياء. وهذه المخلوقات وإنْ كانت تُحِسُّ بالشيء لكنها لا تتعقَّله، عكس الإنسان الذي يُحِسُّ ويَشعر ويتعقَّل حركةَ وجوده كلَّها..

أولاً- أنواع الرّؤى الكونيّة والعقائد[1]:

يختلف وعيُ الإنسان وإدراكُه للعالم من حوله باختلاف مصدر الوعي والتصوُّر.. فقد يكون مصدرُ الوعي أو التصوُّر للأشياء آتيًا من العلم أو من مُعطياتِ الفلسفة، أو من خلال مَوروث الدِّين ونصوصه.. ولهذا يكون التصوُّر ثلاثة أشكال أو أنماط، علمية وفلسفية ودينية.

1 -الرّؤية الكونيّة التجريبيّة:

تقومُ الرُّؤية التجريبية على الحِسِّ والتجربة والفَرَضِيّة ، أي على الرؤية

1 - المفهوم التوحيدي للعالم، م. س.، ص.ص.6-17.

العِيانية الماديّة. حيث إنه إذا أراد العالِمُ في هذا المجال اكتشافَ قانون أو تفسير ظاهرة ما أو التأكُّد من فرضية أو فكرة لمعَت في ذهنه، يقوم إلى مختبره وأدواته وتجاربه، ويَبدأ بالعمل، فيُدخِلُ فرضيَّتَه في معمله وتجاربه، فإذا تأيَّدت الفرضية أو الفكرة من خلال تجاربه، تتَّخِذُ هذه الفرضية صفةَ المبدأ العلمي أو القانون العلمي..

إذًا يعتمد العلماءُ الماديُّون على هذه العلوم الحِسِّيّة التَّجريبيّة لاكتشاف عِلَلِ الأشياء ومعلولاتها..

- **مزايا الرؤية (الأيديولوجية) التجريبية ونقائصها:**

من أهم المزايا التي نلاحظها في هذه الرؤية، المحدودية والجزئيّة والمُشخَّصة. بمعنى أن العلم التجريبي القائم على الملاحظة والتجربة باستطاعته تزويدنا بكم هائل من المعلومات عن ظاهرة أو موجودٍ جزئيّ معين، فمثلاً يمكن للعلم أن يقدم لنا كتابًا ضخمًا من المعلومات عن ورقة واحدة لنبات من النباتات. وهذه المكتشفات والتجارب -التي تمكَّنَ منها الإنسانُ وأثبتَتْ صِحَّةَ كثير من فرضياته وملاحظاته- يَسَّرت وسهَّلت للإنسان كثيراً من سبل حياته، ومكَّنته من السيطرة على كثير من مكتشفات هذا الحقل العلمي وإنجازاته.

..ولكن إلى جانب إيجابيات ومزايا الرؤية التجريبية، هناك ثغرات ونقائص في بنية عملها، هي:

- **المحدوديّة:** لا يمكنُ للتجربة وحدَها أنْ تملكَ القدرة على الكشف والمعرفة وإعطاء الحقائق.. لأنَّ العلوم الحسية، المستندة للتجربة والمعايرة المادية، تبقى مقيَّدة بالتَّجارب وخاضعة لأدواتها المحدودة.

ولهذا تحتاج هذه العلوم لقوانين عقلية أبعد من المادة والتجربة، هي التي تُعطي التجربةَ قيمتَها الواقعية الحقيقية كالعلة والمعلول.. كما أن الكون بجميع أبعاده الواسعة والشاسعة لا يُمكن أن يكون خاضعًا للتَّجارب والحِسِّ، لأن التجربة هنا عاجزة عن متابعة العلل والأسباب أو المعلولات والوصول للنتائج، فهناكَ حدودٌ معيَّنة في الواقع العمليِّ للتجارب الحسية لا يُمكِنُها الوُلوجُ لما بعده.. فقضية بداية الكون ونهايته لا يُمكِنُ إخضاعُها للقياس الماديِّ الحِسِّيِّ.. وقضية أخرى كقضية الغاية من الحياة والوجود، وأن العالم عبثيٌّ أو له غاية.. وقضية الموت وما بعد الحياة.. ووجود سبب أعلى من المادة في الكون.. هي قضايا لا تخضع للتجربة والحِسِّ.. فلا يُمكِنُ القيام بتجربة لإثبات بداية الكون ونهايته..!!. ولا لإثبات عالَم ما بعد الموت.. أي لا يُمكِنُ تجريبها وإخضاعها للمعادلات والصِّيَغ الحِسِّية المادية..

إنَّ العالمَ والوجود -بحسب البُعد الماديِّ والرؤية التجريبية- يُعرَّفُ ككتابٍ قديم ليس له بداية ولا نهاية، بل سقطَت مُقدِّماتُه وأوراقه الأخيرة. فالعلومُ تُعرِّفنا على وضع بعض أجزاء العالم، لا على الشَّكل العامِّ والشَّخصيّة الكلِّيّة للعالم. ويمُكِنُ أيضًا أن نمُثِّل هذا التصوُّر العلميَّ للكون أو للعالم بفيل موجود في الظلام، نلمسُه ولا نراه، فالبعضُ ممَّن يلمسُ أذنَه يقول إنها مِروحة، والبعض الذي يلمسُ رِجلَه يقول عنها أسطوانة... وذاكَ الذي يلمس ظهرَه يقول إنه سرير..!!.

إنَّ معرفةَ العالَم جزئيًّا هي معرفة غيرُ مُكتملة، ولهذا يمُكنُنا القولُ بأنَّ العلم الحسيَّ التجريبيَّ غيرُ قادر على تقديم تصوُّرات كُلِّيَّة عن مفهوم

العالم والوجود، بل وعاجزٌ عن تفسير أهمِّ القضايا المتعلِّقة بأصل الرؤية الكونية، وهي إعطاء صورة عامّة كلِّيّة عن العالم والوجود ككل.

- **عدمُ الرُّسوخ والثَّبات:** الثغرة والنقيصة الأخرى في المنهج الماديِّ والرؤية المادية للكون أنها تفتقر للثَّبات النظريِّ، كون معطيات التجربة ومعاييرها ومقاييسها عاجزة عن فعل ذلك.. وهذا ما يُبقي هذه الرؤية مُتزلزلة مُفتقرة لمبادئ ومعايير أخرى غير مادية، تُعطيها صفةَ الدَّيمومة والثبات النظري. وهذه المبادئ هي البديهيّات الأوَّليّة العقليّة.
- **تمحوُرُها في الحيِّز العمليِّ:** تمتلك الرؤيةُ المَنهجية المادِّية للعالَم قيمةً في الجانب العمليِّ التَّطبيقي فحسب، وهذه القيمة وقتيَّةٌ ظَرفيّة، تَحتاج لقاعدة نظرية معرفيَّة متماسكة. والفكر الأيديولوجي يحتاج دومًا لقاعدة تمَتلك قيمةً نظريّةً لا عمليّة، والقيمةُ النَّظريّة هي القدرة على إعطاء تفسير ورؤية تَصوُّرية لواقع الوجود والعالم.. وأما القيمة العمليّة والفنِّيّة فهي تَعني القدرةَ على تفعيل قدرات الإنسان وتحريض طاقاته على المستوى العملي.. ويمُكِن أن نعتبر أن تطوُّر التقنية والتّكنولوجيا اليوم هو شكل من أشكال القيمة العمليّة والفنّيّة للعلوم التجريبيّة الحسِّية.
- **أيّ رؤية في الحقيقة نريد؟**

على الرغم من كل هذه التقنيات والفتوحات العلمية والتطورات التكنولوجية المذهلة، وما حققه العلم من تقدُّم كبير في كثير من مجالات الحياة البشرية، إلا أنه لم يَتمكَّن -على صعيد الطمأنينة النفسية والشعور بمعنى حقيقة هذا العالم والوجود- من تحقيق شيءٍ يُذكَر، مثلما حقَّق وأنجز في مجالات عملية تجريبية أخرى.. وممّا سبق يمكن أن نسجل هنا

بعضَ السِّمات والخصائص التي تحتاجها الأيديولوجية والرؤية الكونية:

1 - امتلاك القدرة النظرية المتماسكة للإجابة على القضايا الرئيسية للوجود والعالم، بحيث تكون ذات ارتباطٍ بكلِّ العالَم، لا بجزءٍ محدَّد منه.

2 - تقديم رُؤًى معرفية متينة وثابتة وموثوقة ودائمة غير مُؤَقَّتة وغير عابرة.

3 - أن يكون كلُّ ما تُعطيه وتُقدِّمه من معارف وشروحات له قيمة نظريّة كاشفة للواقع، لا أن تكون قيمته عمليّة فنِّيّة مَحضة.

وللأسف، فإنَّ الرؤية المادية، وكلَّ ما تُقدِّمُه من معارف وتصوُّرات علميّة تجريبيّة، تفتقر للمقوّمات الثّلاثة المذكورة سابقًا.

2 - الرُّؤية الكونيّة الفلسفيّة:

ترتكزُ هذه الرؤيةُ على مجموعة مبادئ عقلية فلسفية وتتَّصف بما يلي:

1 - بديهيّة، حيث لا يمكن للذِّهن إنكارُها، وهي تفرض ذاتَها بالبُرهان والاستدلال العقلي. وما نعنيه من البرهان هنا هو أن البديهية ليست بحاجة للبرهنة، لكون بديهيتها تسبق عملية البرهنة عليها.

2 - عامّة شاملة، ويُطلق عليها فلسفيًا بـــــ «أحكام الموجود بما هو موجود».

3 -جازمة. وهذا الجزم يأتي من ثباتها وعدم تزلزلها ورسوخ تفسيراتها.

- إن التصور والرؤية الفلسفية للوجود والعالم تُقدِّم إجابات وتُعطي معانيَ عميقةً وواسعة تُشخِّص الماهية والصورة الحقيقية للعالم بكل شموليته وأبعاده.

● إنَّ الرؤية الحسيّة والرؤية الفلسفيّة يُشكِّلان مُقدِّمةً للعمل، ولكن بطريقتين متباينتين. فالرؤية والتصوُّر الحسيُّ هو مقدّمة للعمل من زاوية أنه يُعطي المرءَ القدرةَ والقوّة على إحداث «التَّغيير» في الطبيعة و«التَّصرُّف» بمواقعها ومواردها.. بما يجعله مهيمنًا على جانب منها، بحيث يُكَيِّفُها بما يحقق له الفاعليةَ والميول والرغبات..

وأما التصوُّر والرؤية الفلسفيّة فهي أيضًا مُقدِّمة للفعل، ولكن من جهتين: جهة تشخيص اتِّجاه الفعل والعمل، وجهة انتخاب المنهج الحياتيّ للإنسان. ولا شكَّ بأن هذه الرؤية الفلسفية ضرورية ومؤثرة على الموقف الذي يتَّخذه الإنسان، وطبيعة تأثُّره وانفعاله بالعالم من حوله.. حيث يقوم باتخاذ المواقف، وبلورة نظرته الكونية والحياتية، ومنح الحياة معنًى ما، بعيدًا عن الفراغ واللا جدوى.. على عكس العلوم التجريبية التي تبدو غير قادرة على إكساب حياة الإنسان معنًى حقيقيًّا يساعده على العيش المستقر والراسخ والهانئ.

3 - الرّؤية الكونيّة الدِّينيّة:

هناك حدود مشتركة بين الرؤيتين الفلسفية والدِّينية للعالم والوجود.. باعتبار أنَّ كلاًّ منهما تُحاول البرهنة على تصوُّراتها عن العالم والوجود عقليًّا، ولهذا يُمكِنُ أن نعتبر أن التَّصوُّر الدِّيني للعالم هو أيضًا رؤية وتصوُّر فلسفيٌّ.. ولكن أيضًا هناك اختلافات وفروقات بين كلا المفهومين والرؤيتين الفلسفية والدِّينية.. خاصة لناحية قداسة قِيَمِه ومبادئه.. وهذا الإيمان بقداسة القيم والمعاني التي تُقدِّمها الرؤية الدِّينية للعالم والوجود

مطلوب وضروري، وهو أمر تُوفِّره المنهجية والتَّصوُّر الدِّيني.. إضافة إلى ما تعطيه من صفات الخلود والثبات والديمومة.

معايير تقييم التصوّرات والرؤى:

يُمكن أن نثبت هنا مجموعة مبادئ معيارية تخصُّ «جودة التصوُّر» الكوني:

أوّلًا: قابليته للإثبات والاستدلال.. والارتكاز على العقل والمنطق، بما يُزيل الغموضَ والإبهام، ويُوفِّر أجواءَ تَقبُّله.

ثانيًا: أنَّه يعطي الوجود والحياة معناهما الحقيقي بعيدًا عن العبثية والضياع والتشتت واللا جدوى.

ثالثًا: أنَّه يُحرِّض في نفوس الناس قِيَمَ الاندفاع والتشوُّق والهدفيّة، ويمَنحُهم طاقةَ العمل وحرارة الحضور الفاعل.

رابعًا: يُعطي الأهدافَ الإنسانية والعملية الكبرى طابعَ القداسة كي تكون مضمونةَ التجسُّد والإجراء والتنفيذ، وهذا الطابع هو الذي يبعث في نفوس معتنقي هذه الرؤية المُقدَّسة روحَ التضحية والفداء والإيثار والاستعداد الدائم للبذل والعطاء بلا مقابل.

خامسًا: امتلاكه للقدرة على خَلْق روحِ الالتزام والإحساس العالي بالمسؤوليّة في داخل الأفراد تجاه أنفسهم ومجتمعاتهم.

4 - الرّؤية الكونيّة التّوحيديّة في معناه وخصائصها:

- **معنى الرؤية الكونية التوحيدية:**

وهي التصوُّر التَّوحيديُّ القادر على تقديم رؤية نظرية مُحكَمة لفهم

العالم والوجود، وأنه مخلوق لغاية عظيمة ونتيجة مشيئة واعية حكيمة مسؤولة، ولهذا فالنظام الوجودي يقوم على الخير والرحمة، بما يعني أن الغاية تَكمُن في وصول الموجودات إلى كمالها المُمكِن لها. ولهذا النظام الكونيِّ، برؤيته التوحيديَّة، خالقٌ عظيم مُدبِّرٌ هو محور كُلِّ شَيء ومبدؤُه ومنتهاهُ، يقول -تعالى-: ﴿**إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ**﴾[1].. ولهذا فإنَّ كلَّ الموجودات في هذا العالم والوجود تتحرَّك -وفقًا لهذه الرؤية التوحيدية- بانسجام تامٍّ نحو غاية تكاملية واحدة، ولم تُخلق عبثًا أو بلا هدف... والعالم كلُّه بكل ما فيه يتحرَّك بناءً على جملة معايير ونُظُم لا تتوقَّف ولا تتخلَّف في «السُّنَن الإلهيّة». ووفقًا لهذه الرؤية الكونية الدِّينية التوحيدية، فإنَّ كلَّ مَن يتأمَّل ويُدقِّق في حركات هذا الوجود، وتَفاصيل هذا العالم ودَقائقه، لا بدَّ أن يصل إلى أن هذا الوجود العظيم، المترامي الأطراف مخلوق ومعلول له -تعالى-، وكل ما فيه يدلُّ على وجوده وعظمته وحكمته وعِلمه.. وهذ التصوُّر التوحيديُّ هو الذي يُعطي الإنسان على هذه الأرض معنًى وروحًا وغايةً مُثلى، تَبعث الأملَ في نفوس الناس، وتُفجِّر فيها قدرات كبيرةً غير منظورة بالمعنى المادي.. لأنك عندما تَعرض أمام الناس أهدافًا وغايات رفيعة ومُقدَّسة، وتَرسم لهم طريق الوصول إليها، فإنك تبعث فيهم جاذبيةً خاصة، فيُصبحون مُضحِّين مُنتجين عاملين..

- **خصائص الرؤية التّوحيدية في الإسلام:**

إنَّ الدِّين الإسلاميَّ يملك رؤية توحيدية مكينة ورصينة، تقوم على

1 - سورة البقرة/156.

الإيمان بالله واجب الوجود، وعلَّة الخلق، ومبدئه، يقول -تعالى- عن هذا الخالق العظيم: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1]. وهذا الخالق غنيٌّ عن كل شيء، وكل شيء بحاجة إليه، يقول -تعالى-: ﴿أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[2].

وهو محيطٌ بكل الأمور والأشياء، ولا تَخفى عليه خافية: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[3]. ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

إنه موجودٌ في كلِّ الأمكنة، ولا يخلو منه مكان ولا جهة، يقول -تعالى-: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ﴾[5].

وهو عليمٌ بخفايا الصدور والقلوب، ويعلم خواطر النفوس، وما يجول ويدور في أذهان البشر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[6]، ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾[7].

وهو لا يحتويه جسم ولا يمكن رؤيتُه عيانًا، يقول عز وجل: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[8].

1 - سورة الشورى/11.

2 - سورة فاطر/15.

3 - سورة الشورى/12.

4 - سورة الحج/6.

5 - سورة البقرة/115.

6 - سورة ق/16.

7 - سورة الأعراف/180.

8 - سورة الأنعام/103.

وبالاستناد إلى الرُّؤية والنظرة الكونيّة الإسلاميّة التّوحيديّة نقول:

1 - إن الوجود والحياة والعوالم كلَّها معلولةٌ لله -تعالى-، ومخلوقةٌ ومُوجَّهةٌ بعنايته ومشيئته عز وجل، ولا يمكن استمرار الحياة والوجود إلا بلطفه ورحمته وعنايته، وإذا ما حدث انقطاع في هذه العناية يكون الفناء والموت والعَدم.

2 - إنَّ الوجود والعالم والحياة كلُّها لم تُخلَق بلا معنى، بل هناك غايات كبرى حكيمة تكمن وراء الخلق العظيم،.. والله تعالى وضع لكل شيء سبيلَه وميزانَه وحكمتَه والغايةَ منه.

3 - إن هذا النِّظام القائم، الذي خلقه الله -تعالى- وأبدعه، هو النِّظام الأتمُّ والأحسن والأكمل والأرقى.

4 - يقوم الوجود والحياة والعوالم كلُّها على قواعد متينة من العقل والحقِّ والحِكمة، ويستند أيضًا على نظام الأسباب والمُسبّبات والسنن الإلهية.. فلِكلِّ شيء سببُه ودافعُه، ولكل شيء مقدمته ونتيجته.

5 - في الرؤية التوحيدية كلُّ شيء له عِلَّتُه الخاصة به، ولا يوجد شيءٌ من فراغ، ولهذا يكون القضاء والقدر سلسلةَ عِلَلِ الأشياء.

6 - تتَّحرك الإرادة والمشيئة الإلهية في العالم وفقًا لقانونٍ ومبدأ، وهي سُنَنٌ ثابتة راسخة، لا تُغيِّرُها الظُّروف والتَّحوُّلات، التي هي بدورها تحدثُ بالاستناد إلى القوانين والسُّنن الإلهيّة.

7 - الخيرُ والشَّرُّ في الدنيا ليسا مفروضَين، بل هما مرتبطان بفعل الإنسان وسلوكه ومواقفه ومجمل أعماله.. مُرتبطان بنوع سلوك الإنسان في العالم ومواقفه وأعماله.

8 - القضاء والقدر الإلهيان هما المُهَيمِنان على كلِّ ما في هذا العالم والوجود..

9 - الإنسان خاضعٌ للقضاء والقدر وتَحتَ سُلطانهما، فهو موجودٌ حرٌّ مختارٌ مسؤولٌ ومُتحكِّمٌ بمصيره وقراره.

10 - إن الله أكرم الإنسان بالعقل والهدى والكرامة، وجعله صالحًا لتحمُّل مسؤوليّةِ الخِلافة على الأرض.

11 - الدُّنيا هي جسر العبور إلى الآخرة، والعلاقة بينهما تكاملية.. فلا انفصال.

ومما تقدَّم يتَّضح أنَّ التَّوحيد العمليَّ –وهو أعمُّ من التّوحيد العمليِّ الفرديِّ المجتمعي- هو انسجامُ الفرد في إفراد الله -عز وجل- بالعبادة، ورفض عبادة ما سِواه من عَوالِم الحياة المُتغيِّرة، كعبادة الهوى، والسلطة، والجاه، والمال، وغيرها. وهو أيضًا يعني اجتماعيًّا انسجام المجتمع في طريق التَّوحيد الحقِّ، ورفض كلِّ طاغوت ومستبدّ.

■ المبحث الثالث- أبعاد الوجود في الرّؤية الكونيّة الإسلامية (إله العالم، الإنسان، العالم)

لا شكَّ بوجود اختلاف جذريٍّ وجوهري كبير بين الرّؤية والنظرية الكونيّة الإسلاميّة وباقي الأيديولوجيات والرُّؤى الكونية. وهذا الاختلاف الجذريُّ يتعلَّق أساسًا في أصل طبيعة النظرة إلى الإنسان والعالم والوجود، ومبدأ العالم وخالقه ومُنشِئِه، وفي غيرها من المسائل التي تتفرَّع عن السبب الجوهري..

أولًا- ماهيّة الإنسان[1]:

الإنسان خليفة الله على الأرض، وقد أكرمه -تعالى- بالهدى والعقل والاستقامة، ومدحَه وأثنى عليه في كتابه العزيز. وبطبيعة الحال لم يكن المدحُ لكلِّ الناس، بل للنَّماذج البشرية العليا التي تمكَّنَت بفضل إيمانها بالله وأخلاقها وفضائلها من الوصول إلى مراتب رفيعة ومقامات عالية. وبنفس الوقت فإنَّ الله تعالى ذمَّ هذا الإنسان ووبَّخه، والذَّمُّ والتَّوبيخ لم يكن أيضًا للجميع، بل لمن فشل في الحصول على نِعَمِه -تعالى-، والسَّير على طريق الكمال والوعي والمسؤولية..

هذه الثنائية (المدح والذم) لهذا المخلوق لم تأتِ من فراغ، بل هي ناجمة عن فعل الإنسان نفسه، فقد وجَّه تعالى للإنسان أرقى كلماتِ المديح وأسماها، وميَّزه عن بقية المخلوقات، وأعطاه القدرة على الفعل والحضور في الحياة، لبنائها والتمتُّع بخيراتها وتسخير مواردها وثرواتها لصالحه.. فهو موجودٌ فاعل وقادر على الوصول إلى أعلى عِلِّيِّين، ولكن إنْ خالف وكفر بنِعَمِه -تعالى- يُمكن أن ينزل إلى أسفل سافلين. والقرار بيده هو، لحسم مصيره النهائي..

ثانيًا- قيمة الإنسان:

1 - الإنسان هو الخليفة المُستأمَن منه -تعالى- على البسيطة، يقول -عز

1 - مرتضى مطهّري، أنسنة الحياة في الإسلام، الإنسان في القرآن، دار الإرشاد، لبنان/بيروت، الطبعة الأولى، عام 2009م، ص.ص.251-254.

وجل-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1].. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾[2].

2 - إنّ سَعَةَ ظرفيّة الإنسان العلميّة هي أكبر سَعَة ظَرفيّة يمُكن أن تكون لمخلوق: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

3 - والإنسان لديه فطرة المعرفة، معرفة الله في عمق ضميره ووجدانه، وكلُّ ما يمكن أن يأتي عليه من شكوك وجحود هو مجرد أمراض وانحرافات تَستهدف حَرفَه عن هذه الفطرة، يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا﴾[4]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[5].

4 - لقد خلق الله -تعالى- الإنسانَ مادةً وروحًا، ولهذا يوجد فيه عنصران: ملكوتيٌّ، وماديٌّ، يقول -تعالى-: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ

1 - سورة البقرة/30.
2 - سورة الأنعام/165.
3 - سورة البقرة/31.
4 - سورة الأعراف/172
5 - سورة الروم/30.

فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1].

5 - خلقَ اللهُ تعالى الإنسان لغاية، ولم يكن خلقه عبثًا، فهو موجود مُنتخَب لغايات عظيمة نبيلة، يقول -تعالى-: **﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾**[2].

6 - وللإنسان شخصيّةٌ حُرّةٌ مُستقلّة، وقد وهبه -تعالى- العقل لِيُفكِّرَ ويَستهدي ويختار، وأمره ببناء الحياة على أُسس العدل والأخلاق، ويُعمِّرها بالعمل والإنتاج والإبداع، والقرار بيده، سعادةً أو شقاءً، يقول -تعالى-: **﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾**[3]، **﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾**[4].

7 - الإنسانُ أعظمُ مخلوق مُكرَّم من الله -تعالى-، فقد متَّعه بالعقل وبالكرامة الذاتيّة والشرف الذاتيِّ، يقول -عز وجل-: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾**[5].

8 - يتمتَّع الإنسان بضميرٍ ووجدان ذاتي جُوَّانيٍّ أخلاقيٍّ، وله من نفسه

---

1 - سورة السجدة/7-9.

2 - سورة طه/122.

3 - سورة الأحزاب/72.

4 - سورة الإنسان/2-3.

5 - سورة الإسراء/70.

بصيرة لكي يُميِّزَ بين الفعل القبيح والجميل، بحُكم هذه البصيرة (والإلهام الفطريّ)، يقول -عز وجل-: ﴿**فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾[1].

9 - لا يهدأ إلّا بذكر الله، ولا نهاية لطلباته، ولا يشبع من أيِّ شيء يناله، إلّا أن يتَّصل بذات الله الأبديّة اللامحدودة: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ**﴾[2].

10 - خُلِقَت نِعَمُ الأرض والسَّماء من أجل الإنسان: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[3]، ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا**﴾[4].

11 - الغاية من خلق هذا الإنسان تتجلَّى في العبودية له -تعالى-، ووجوب طاعته، يقول -تعالى-: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[5].

12 - وجود وقيمة هذا الإنسان تتمثَّل في عبادة الله -تعالى-، ولا يَتمثَّل وجوده إلا بالعبادة وذكر الله -تعالى-، يقول -عز وجل-: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[6].

13 - وبعد موت الإنسان سيرى الحقائقَ أمامه، وسيُواجِهُ ما كان يعتقد

---

1 - سورة الشمس/8 - 10.

2 - سورة الانشقاق/6.

3 - سورة البقرة/29.

4 - سورة الجاثية/13.

5 - سورة الذاريات/56.

6 - سورة الحشر/19.

أنه غير موجود، يقول -تعالى-: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[1].

14 - للإنسان حاجات مادية وأخرى روحية، وهو لا يعيش بتوازن ووعي إلا بالتوفيق بينهما، فلا يَطغى جانبٌ على آخر، وهذا يتحقَّق فقط بالسعي لنيل رضاه -تعالى- في كل حركة وفعل، يقول -تعالى-: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[2].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3].

ثالثًا- عالم الغيب والشهادة:

الغيب والشهادة مفهومان أساسيان في الرؤية الكونية التوحيدية الإسلامية، التي ترى أنَّ العالم ينقسم إلى قسمين، الأول هو عالَم الغيب، والثاني هو عالَم الشهادة. وهذا التقسيم ركن أساسيٌّ في العقيدة الإسلامية، يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[4]، ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[5].

1 - سورة ق/ 22.

2 - سورة الفجر/ 27 و 28.

3 - سورة التوبة/ 72.

4 - سورة الأنعام/ 59.

5 - سورة البقرة/ 3.

والغيبُ هو الخَفاء وعدمُ الظهور، وهو على نوعين ومَظهرَين: نِسبيٍّ ومُطلَقٍ. فأما الغيب النِّسبيُّ فهو: كلُّ شيء لا يظهر للناس، وتعجز حواسُّهم عن رؤيته وإدراكه.. وقد أورد القرآنُ كلمةَ الغيب بهذا المعنى النِّسبيِّ أيضًا، يقول -عز وجل-: ﴿**تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ**﴾[1].. فما جرى في الحضارات السابقة منذ آلاف السنين، في أحوالهم وقصصهم ووقائعهم وأحداثهم، هو أمر غيبيٌّ بالنسبة لكلِّ من جاء بعدَهم..

ويُطلِقُ كتابُ الله كلمة الغيب أيضًا على ظواهرَ غيرِ محسوسة، وهنا يجب التفريق بين ظواهرَ غيرِ مَحسوسة لأنها بعيدة في مسافتها عنا، وبينَ ظواهرَ وحقائقَ لا يُمكِنُ رُؤيتها والإحساس بها نظرًا لمحدوديَّتها وعدم مادِّيّتها.. وواضح أنَّ القرآن -حين يصف المؤمنين بأنَّهم يؤمنون بالغيب- لا يقصد الغَيبَ النِّسبيَّ، لأنّ كلَّ الناس (مؤمنهم وكافرهم) يُقرُّون ويعترفون بالغيب النِّسبيّ.. كما أنَّ الآية الكريمة التي تحصر علمَ مفاتحِ الغَيبِ بالله تَقصد الغيبَ المُطلَق، ولا يَنسجم مَفهومُها معَ الغيب النِّسبيِّ. وحين يَرِدُ ذكرُ الغيب والشهادة معًا، كقوله -تعالى-: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾[2]، فالمَقصود بالغَيب المُطلَقُ منه، لا النِّسبيّ أيضًا[3].

رابعًا- هل من علاقة بين عالَميّ الغيب والشهادة؟ وما طبيعتها؟

بحسب الرؤية الكونية الإسلامية لا يوجد حدٌّ فاصل بين عالَم الغيب

1 - سورة هود/49.

2 - سورة الحشر/22.

3 - المفهوم التّوحيديّ للعالم، م. س.، ص.ص.73-75.

وعالَم الشَّهادة، لكن من الصَّعب تَحديدُ طبيعة العلاقة والارتباط بينهما بتعابير ومعانٍ مادية جسميّة.. وإنَّما يُمكن تقريبُها للأذهان كالعلاقة بين الأصيل والوكيل، الأصل والفرع، أو علاقة الإنسان بالظِّلِّ الخاصِّ به.. فهذا العالم الذي نعيش فيه هو -بمعنى من المعاني- انعكاسٌ لذلك العالَم. وهذا ما يُمكِّننا استنباطُه من القرآن الكريم، وهو أنَّ كلَّ ما في هذا العالم ليس إلا «وجودًا نازلاً» عن موجودات العالم الآخر: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾[1].. وحتى معدن الحديد، يَذكره كتابُ الله بكونه وجودًا نازلاً أو مُنْزَلاً، يقول عز وجل: ﴿**وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ**﴾[2].

طبعًا ما يقصده القرآن هنا من كلمة النزول (سواء بصيغتيها: التنزيل أو الإنزال) ليس النُّزولَ أو الانتقال المكاني، أي الحركة والنَّقل أو الانتقال من مكان إلى مكان آخر.. بل يقصد أن كلَّ موجود تراه أعيُنُنا أمامَنا هنا في هذا العالم إنَّما هو «ظلٌّ» وفرع ومرتبة نازلة لأصله (وجوهره وحقيقته)، الذي هو كائن في موقع ومكان وعالَم آخر هو عالَم الغيب.. والقرآن يضع أمامنا عنوان «الغيب» كنوع من التصوُّر الإسلامي والإيمان بشأن كلِّ ما يتَّصل ويتعلَّق بالكون، وهذا ما يُظهرُه ويُبيِّنُه لنا -في بعض الأحيان- تحت مُسمَّيات وعناوينَ أُخرى، مثل الإيمان بالملائكة، والإيمان برسالة الرُّسُل، والإيمانِ بالوحي: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ**

1 - سورة الحجر/21.

2 - سورة الحديد/25.

آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِىَ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلًا بَعِيدًا﴾[2].

ففي الآيَتَينِ السَّابقتَينِ يَرِدُ ذِكرُ «الإيمان بكتب الله» بصورة مستقلة وبشكل مستقلٍّ، ولو كان المقصود من هذه الكتب هو الكتب السماوية المُنْزَلة على الأنبياء لكفى ذِكرُ الإيمانِ بالرُّسُل، وهذه قرينة على أنَّ المقصود بالكتب هو حقائق غير حقائق عالَم الشهادة. وفي القرآن ورد ذكر حقائق خَفيَّة غَيبيَّة تكرارًا، باسم ﴿الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ و«اللوح المحفوظ» و﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ و«الكتاب المرقوم» و«الكتاب المكنون».

فالإيمان بتلك الكتب الغَيبية هو جزء أصيل لا يتجزّأ من الإيمان بالإسلام كلِّه.

والأنبياءُ إنمَّا أُرسلوا لكي يَدعوا البشريةَ إلى الإيمان بهذه النظرة العامة للوجود والكون والحياة، التي لا يُمكِنُ أن يَتركَّزَ العالَم ويَنحصر بموجبها في نطاق الأمور المادية الجسمانية المَلموسة، الواقعة ضمن العلوم الحسِّية التجريبية.. بما يعني أن دعوة الرسل كانَت تستهدف محاولةَ التَّسامي بالإنسان من حالة الحسِّ إلى حالة المَعقول ومُستواه، من العَلَن والجَهر إلى الخفاء والغيب، ومن نِطاق المحدود إلى العالَم اللامحدود..

1 - سورة البقرة/285.

2 - سورة النساء/136.

«وللأسف! فإنَّ تيار الأفكار المحدودة المادِّية والحِسِّية، التي هبَّت من الغرب، جعلَتْ فئةً من المسلمين يُصِرُّون على إنزال المفاهيم الإسلامية السامية في التصوُّر الإسلامي إلى مستوى المَحسوسات والمادِّيات»[1].

خامسًا- عالم الدُّنيا والآخرة:

وهذا التقسيم أيضًا هو جزءٌ رئيسيٌّ من مُجمَلِ أركان الإيمان الدِّيني الإسلامي.. فالدُّنيا هي عالَم العمل والفعل والمادة.. عالَم الشَّهادة.. والآخِرةُ عالَم الغيب والنتيجة.. العالَم الذي يَؤوب إليه الإنسان.. ونحن كبشر جئنا من عالَم الغيب، العالَم الخَفيِّ بالنسبة إلينا، وعالَم الآخرة سَنؤوب إليه لاحقًا.. وهذا ما أشار إليه الإمام علي (ع) في قوله: «رَحِمَ اللهُ امرأً عَلِم من أينَ وفي أين وإلى أين»[2]. وفرَّق بين «من أين» و«من أيِّ شيء»، فلو قال الإمام (عليه السلام). «من أيِّ شيء»، لكان يُشير إلى التراب، كما ورد في الآية الكريمة: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[3]. لكن الإمام علي أشار إلى كلمة أو مفهوم آخر، هو مفهوم العالم الذي جئنا منه، والذي نحن فيه والذي نَؤوب إليه.

«من وجهة نظر الرُّؤية الكونيّة الإسلاميّة، فإنَّ الدُّنيا والآخرة -مثل الغيب والشّهادة- لكلٍّ منهما نشأةٌ مُستقلّةٌ بتعبير القرآن. أمَّا النسبيُّ فهو

1 - المفهوم التّوحيديّ للعالم، م.س.، ص.ص75-77.

2 - صدر الدين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، لبنان/بيروت،1981م، ج9، ص355.

3 - سورة طه/55.

العمل الدُّنيوي والعمل الأُخروي، أي إنَّ العمل إن كان إرضاءً لهوى النفس فهو عمل دنيوي، وهذا العمل نفسه إنْ كان لله ولتحقيق رضا الله فهو عمل أُخروي»[1].

سادسًا- الله مبدأ العالم وجوهره:

العقلُ آلة التَّفكُّر والتدبُّر، وقد أكرم الله به الإنسانَ.. وطلب منه أن يستعمله بقوة وحكمة ومسؤولية، وألا يقف من خلاله عند ظواهر الأمور والأشياء، خاصة تلك المتعلِّقة بحقائق الكون والحياة. إن قوة العقل تتطلَّب من الإنسان أن ينظر إلى ما بعد هذه الظواهر النسبية المحددة والمفتقرة والمُحتاجة، ليتفكَّر ويتأمَّل ويَعِيَ أنَّ كلَّ ما في هذه الساحة الكونية من مَوجودات ليست قائمة بذاتها، بل هي مَعلولة ومُفتقرة لعلة أكبر منها وأعظم، ترتكز عليها كل الموجودات والكائنات في كل زمان ومكان.. فهذه حقيقة الحقائق، ومن دونها لا يُمكِنُ أن يقف شيءٌ في هذا الكون على قدميه.. ولا يُمكن لأيِّ شيء أن يُوجد. وبعد هذه الحقيقة المطلقة ليس من شيء سوى الموت والفناء.

إن هذه القوة المُطلَقة المُدبِّرة هي الله -تعالى-، وقد وصفَ القرآنُ اللهَ بأنه «حيٌّ» و«قَيُّوم» و«غَنِيٌّ» و«صَمد».. إنّه عز وجل «الغنيُّ» لأنَّ كلَّ شيء سِواه مُحتاجٌ له، ومُفتقرٌ إليه، ولا قيمة له من دونه.. وهو «الصَّمَد» لأنَّ ما سِواه فارغٌ وقيمتُه تتحدَّد من الحقيقة التي تملأ فراغَه بالوجود.

1 - المفهوم التّوحيديّ للعالم، م.س.، ص.ص.77-78.

وكل الموجودات المحسوسة في الكون والطبيعة يُطلِقُ عليها القرآنُ اسم «الآيات»؛ لأنها كلها -صغيرها وكبيرها- تدلُّ على وجود الله المطلق، وأنه عالِمٌ وقادر وحيٌّ وقيُّوم وصاحبُ مَشيئةٍ مُطلَقة.. وكلُّ عِلمٍ من علوم الطَّبيعة يُعرِّفنا -من زاوية- على ما في العالَم من موجودات وكائنات، ومن زاوية أدقَّ يُعرِّفُنا على القوة والعلة الكامنة وراء كلِّ ذلك، وهو الله -تعالى-.

ولأجل أن نفهم منطقَ القرآن بشأن التعرُّف على الطَّبيعة من منظور التعرُّف على الله، نكتفي بذكر آية كريمة واحدة من آيات قرآنيّة كثيرة في هذا المجال: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاء مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[1].

فهذه الآية تدعو إلى التعرُّف على السّاحة الكونيّة بما فيها من مظاهر حركة الأفلاك، والنِّعَم المُرتَبطة بها، ومنشأ الأمطار والغيوم، والأحياء الموجودة على ظهر الأرض.. كما تؤكِّد الآيةُ الكريمة على أنَّ التعرُّف على هذه المظاهر الطَّبيعيّة باعثٌ على معرفة الله[2].

سابعًا- معرفة الله بصفاته:

يتحدَّث القرآنُ الكريم عن أنَّه تعالى يتَّصف بجميع صفات الكمال

1 - سورة البقرة/164.

2 - المفهوم التّوحيديّ للعالم م.س.، ص.ص23-25.

وعظمته، يقول -عز وجل-: ﴿لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنى﴾[1]. وتلك الصِّفات والسِّمات الرفيعة السّامية في كلِّ الوجود هي صفاتٌ تَخصُّه هو، ولا تَخصُّ غيرَه، يقول: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2].

من هنا، فاللهُ حيٌّ، قادرٌ، عليمٌ، مريدٌ، رحيمٌ، ... ومُتَّصفٌ بكلِّ صفات الكمال الأخرى. ومن جهة أخرى فهو -تعالى- ليس بجسم، ولا مُركَّب، ولا ميِّت، ولا عاجز، ولا مُجبَر، ولا ظالم.. المجموعة الأولى من الصِّفات هي الصِّفات الكماليّة التي يتَّصف بها الله، وتُسمَّى الصِّفات الثُّبوتيّة. والمجموعة الثّانية ناشئة من النُّقصان، والله مُنزَّه عنها، ويُسمِّيها بَعضُهم تجاوُزًا، «الصّفات السَّلبيّة».. ونحن نحمدُ الله ونُسبِّحه ونحمده حين نذكر أسماءَه الحسنى وصفاته الكماليّة، ونُسبِّحه حين نُنزِّهُه عمّا لا يليق به. وفي الحمد والتَّسبيح نُركِّز على معرفة الله، وبذلك نرتفع بأنفسنا على مدارج الكمال[3].

ثامنًا- الوحدانية أهمُّ الصِّفات:

الله واحدٌ أحَد، فَرْدٌ صَمَد.. لا مثيلَ له ولا قرينَ ولا شبيهَ ولا شريكَ.. ومُحال أن يكون له شريك، لأنَّ التعدُّد من خواصِّ الموجودات المَحدودة النِّسبيّةِ، وهو مُطلَق، لا نِسبية له، لا يحتويه مكانٌ ولا زمان.. يُدرِك الأبصارَ

1 - سورة الحشر/24.

2 - سورة الروم/27.

3 - المفهوم التّوحيديّ للعالم، م. س.، ص25.

ولا تُدركه الأبصارُ.. وجودُه لامُتناهٍ لا يَقبل التعدُّد ولا الكثرة.

وبخصوص الأبعاد والمتناهي واللا متناهي، فقد انقسم العِلمُ والعلماءُ بهذا الخصوص إلى فئتين، فئة ذهبت إلى أنَّ أبعادَ الكون محدودةٌ وليست لا نهائية.. أي إنَّ العالَمَ الماديَّ الذي نُحسُّه له حدودٌ يَنتهي عندها، وفئة ثانية تتحدَّث عن لا نِهائية الكونِ والوجود، وأنَّه لا طرفَ ينتهي إليه العالَمُ.. فلا بداية له ولا نهاية ولا وسط.

وهناك طبعًا عشرات الأسئلة التي تترتَّب على ما تقدَّم من أفكار تخصُّ أبعادَ الكون والوجود.. فإذا اعتبرنا أن الكون المحسوس محدودٌ وله نهاية، فهل يكون الكون الماديُّ واحدًا أم أكثر؟! أي هل هناك أكثر من عالَم كونيٍّ؟!.. وأمّا إذا اعتبرناه غيرَ محدود، فإنَّ فرضَ وجودِ كون ماديٍّ آخر يصبحُ غيرَ معقول، لأنّنا كلَّما فرضْنا كونًا آخر، فإنّه إمَّا أن يكون هذا الكونَ نفسَه أو جزءًا منه.

وعن هذا الموضوع يتحدث الشهيد الشيخ مرتضى مطهري (ره): «هذا المثالُ يرتبطُ بعالَم الأجسام والموجودات الجسميّة المحدودة والمشروطة والمخلوقة، والتي ليست لها حقيقةٌ مُطلَقة ومُستقلّة وقائمة بالذّات، وهذا العالم المحدود في حقيقته لا يُمكن أن نتصوَّر له عالماً ثانيًا إذا قبلنا بنظريّة «لانهائيّة أبعاده»، فما بالُك بالله -سبحانه-، وهو -تعالى- غيرُ محدود وحقيقةٌ مُطلَقة ومُحيطٌ بجميع الأشياء، ولا يَخلو منه زمانٌ ولا مكان، وهو أقربُ إلينا من حبل الوريد. ومن هنا، فمُحال أن يكون لله نظيرٌ أو شَريكٌ، بل لا يُمكِنُ افتراضُ ذلك. إضافةً إلى ذلك، نحن نرى آثارَ عناية الله، وتَدبيره وحِكَمه في جميع الموجودات.

ونشاهد الإرادة الواحدة والمشيئة الواحدة والنظّام الواحد في جميع أرجاء العالَم. وهذا يُشير إلى أنَّ عالَمَنا ذو مصدرٍ واحدٍ، لا مصدرين، ولا عدّة مصادر»[1].

تاسعًا- ما هي المُميّزات التي يتميَّزُ بها عالَمُنا المادّيُّ، وكيفَ ندركُه؟

تدفع الفطرةُ الإنسانَ باتجاه الواقع الموضوعي، وضرورة معرفته، ومعاينته، ووَعيه.. مثلما يتَّجهُ ويندفع الطفلُ بعد ولادته باحثًا عن ثدي أمِّه ليتغذَّى ويَسدَّ جوعَه، وهذا الاندفاعُ الفطريُّ هو بحثٌ عن الواقعَ الموضوعي.. ومع نموٍّ وتكامل جسم الطّفل وذهنه، يبدأ بالابتعاد عن الأشياء والأمور الأخرى، أي تتفكَّك العلاقة بين نفسه والأمور الحياتية الأخرى.. ويَنظر إلى الأشياء باعتبارها خارجةً ومنفصلة عنه. ومع أنَّ ارتباطَهُ بالأشياء هو عن طريق مجموعة من الأفكار، فهو يستفيد من الأفكار باعتبارها وسيلةً ورابطًا، لكنّه يعلم أنّ الحقيقة الموضوعيّة للأشياء هي غير الأفكار الموجودة في ذهنه[2].

عاشرًا- العالم المَحسوس[3]:

العالَمُ الماديُّ (المحسوس والمُعايَن) هو مجموعة الحقائق الموضوعيّة

1 - المفهوم التّوحيدّيّ للعالم، م.س.، ص.ص25-27.

2 - م.س.، ص20.

3 - م.س.، ص.ص20-23.

التي يُعاينُها الإنسانُ، ويَتمكَّن من إدراكها عبر حواسِّه المادية، وتتَّصف بما يلي:

1 - المحدوديّة:

كلُّ الموجودات المادية التي يمُكِنُ مُعاينتُها والإحساسُ الماديُّ بها تشغل حيِّزًا مكانيًّا وزمانيًّا مُحدَّدًا ابتداءً من أصغر ذرة (بكل ما فيها) ووصولاً لأكبر وأعظم مَجَرَّة.

2 - التَّغيُّر والتحوُّل:

وهو يعني أنَّ كلَّ الموجودات والكائنات في هذا الكون، والعوالِمَ الصغيرة والكبيرة، مُتغيِّرة متحوِّلة مُتطوِّرة لا تَثبت على حال.. أي أنها مُتحرِّكة لا تقف أبدًا.. سواء في نموِّها وتكاملها، أو في تدهوُرِها وانحطاطها.. إنها حالة الأخذ والعطاء، النَّقص والزِّيادة.. إذ لا يُمكن لموجودٍ ماديٍّ أن يبقى في حالة سكون وثبات وجمود.

3 - الارتباط العام:

حالةُ التعلُّق والارتباط موجودة بين كل العوالِمِ والكائنات، إذ إنَّ كلَّ موجودٍ في الكون «مرتبطٌ» و«مشروطٌ» في وجوده بوجود شيءٍ أو أشياء أخرى، والارتباط يُؤثِّر في الجميع، حياةً أو موتًا، وجودًا أم عَدَمًا وفناءً.

4 - الحاجة:

إن علاقة الارتباط والتعلُّقَ بين الكائنات والموجودات تَعني أنَّها بَعْضَها محتاجٌ لبعضٍ، ولكلِّ المناخات والظروف التي ترتبط بها.. وهذا التعلُّق والاحتياج يعطينا فكرة عن أن كل الكائنات والموجودات غير مستغنية بذاتها عن غيرها.. ولا يُمكِن أن تستمرَّ في الحياة لوحدها بعيدًا عن غيرها.. من هنا، فالفقر والحاجة من المظاهر العامّة في موجودات الكون.

5 - النِّسبيّة:

والنِّسبيَّةُ هنا تعني الحاجةَ والافتقار.. وهذه صفة ذاتيّةٌ عميقةٌ في أصل وجود كلِّ الكائنات والموجودات المحسوسة والمَشهودة.. ومواصفاتُ أيِّ كائن من الكائنات، أو موجود من الموجودات، هي نسبية بالنسبة لغيره ولذاته.. فمثلاً الأرض كوكب كبير، وهذا صحيح بالنسبة لكوكب القمر، ولكن في الوقت ذاته هي كوكب صغير بالنسبة لكوكب المشتري، ولنجم الشمس، مثلاً.. وهكذا لو وصفنا موجودًا ما بأنّه قويٌّ أو جميل أو عالِم.. حتَّى إنَّ الشّيء يظهر من خلال نسبته إلى وجودٍ آخر.

كلُّ وجود، وكلُّ كمال، وكلُّ عِلم، وكلُّ جمال، وكلُّ قدرة وعَظَمة وجلال، كلُّ ذلك يظهر حين ننسبه إلى ما هو دونه. وبالإمكان أيضًا افتراضُ ما هو أسمى منه، وكلُّ الصِّفات المذكورة تنقلب إلى ضِدِّها حين ننسب الموجود إلى ما فوقه، ونقلب الوجودَ إلى فناء، والكمالَ إلى نقص، والجمالَ إلى قبح، والعظمة والجلال إلى حقارة.

■ المبحث الرابع- طرق الوصول إلى الرؤية الكونية الإسلامية

أولًا- الموضوعية ونبذ التقليد:

الإسلام هو دينٌ ورسالةٌ إنسانية تنظر للأمور والوجود نظرةً حقيقية واقعية وموضوعية، بعيدًا عن المثاليات والخرافات والأساطير.. وتَعني كلمةُ «الإسلام» التَّسليم، التسليم بالوجود الحي الموضوعي القائم بكل حقائقه وثوابته ومُتغيِّراته، بعيدًا عن التعصُّب والإنكار والتحيُّز والعناد.. لأن هذه

الصفات السلبية كلُّها تتناقض مع الحقائق والرواسخ الموضوعية..

والمسلم الحقيقيُّ، سواء أكان رجلاً أو امرأة، يتشوَّق للحقيقة، ويتطلَّع لتمثُّلها على الأرض، ويسعى دومًا للحكمة والحقائق الجوهرية..

والمسلم الحقيقيُّ يطلب الحقيقةَ ويُؤمن بما قاله الرسول الكريم (ص): «خُذوا الحكمة ولو من المشركين...»[1]، «وَالْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَاطْلُبُوهَا وَلَوْ عِنْدَ الْمُشْرِكِ»[2].

الإسلامُ يُدين الظُّنون السَّطحيّة المتحيِّزة في المسائل، والتقليدَ الأعمى للآباء والأجداد، والتَّسليم للتَّقاليد الموروثة، لأنَّها مُعارِضةٌ لروح التَّسليم أمام الحقيقة، وباعثة على الانحراف والابتعاد عن الواقع الموضوعيّ[3].

إنَّ الأبحاث الإلهية من أبعد الأبحاث عن الحسِّ والعيان، إذ تتناول هذه الأبحاثُ الحديثَ عمّا وراء عالَم المادّة، وهذا كافٍ بالنسبة إلى بعض التيارات الفكرية لكي يُشكِّكوا في قيمة هذا العِلم. دَعُونا من المادِّيِّين، الذين يُنكرون عالَم ما وراء الطبيعة، بحجّة أنَّهم لم يَلمسوه في الطبيعة، بل هناك فريقٌ آخر لا ينحطُّ إلى هذا المستوى من التفكير، لكنَّه لا يَعترف لهذا العلم بقيمته الحقيقية[4].

---

1 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، لبنان/بيروت، الطبعة الثانية، 1981م، ج2، ص97.

2 - محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: على أكبر الغفارى، دار الكتب الإسلامية، إيران/طهران، الطبعة الرابعة، 1984م، ج8، ص167.

3 - المفهوم التّوحيديّ للعالم، م.س.، ص.ص19-20.

4 - محمد حسين الطباطبائي، أصول الفلسفة والمنهج الواقعيّ، تقديم وتعليق: الشهيد الشيخ: مرتضى مطهري، دار المحجة البيضاء، لبنان/بيروت، 2017م، ج2، ص524.

ثانيًا- مصادر التَّفكير في الإنسان[1]:

لمعرفة مصادر التفكير التي يدعو إليها الدِّين الإسلاميُّ، يمكن العودةُ إلى القرآن الكريم، حيث نجد الدعوة الواضحة للتفكُّر والتدبُّر والتأمُّل.. وعلى هذا الصعيد يتحدَّث القرآن عن عدة مواضيع مهمة ومفيدة، هي:

1 - الطّبيعة:

أمر اللهُ -تعالى- الإنسانَ بضرورة أن يتفكَّر ويُدقِّق ويَتَقصَّى ويَتأمَّل في كل شيء، خاصَّةً في آياته الكونية التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى.. وجاء هذا الطلب والأمر في كثير من آيات القرآن الكريم، في أن يَتفكَّر ويتدبَّر في الأرض والسَّماء والنُّجوم، والشَّمس والقمر، والسَّحاب والمطر، والرِّياح، وسير السُّفن في البحار، والنَّباتات، والحيوانات، وفي كلِّ أمر محسوس يشاهده الإنسانُ من حوله، ونذكر آية منها -على سبيل المثال-: ﴿**قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[2].

2 - التّاريخ:

يَدعو القرآنُ لدراسة سيرِ وتواريخ الحضارات والأمم والمجتمعات السابقة، واستخلاص العِبرَ والدُّروس منها، بما يعني أنه يَعتبرها مصدرًا من مصادر المعرفة وتعلُّم الحكمة، خصوصًا منها دراسة السُّنن التاريخية والقوانين الناظمة لحركة التاريخ التي تخضع لإرادة الله تعالى في سننه ونواميسه الرَّبانية، يقول تعالى: ﴿**فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[3].

---

1 - مرتضى مطهري، أنسنة الحياة في الإسلام، الإنسان والإيمان، دار الإرشاد للطباعة والنشر، لبنان/بيروت، 2009م، ص.ص246-248.

2 - سورة يونس/101.

3 - سورة آل عمران/137.

3 - ضميرُ الإنسان ووجدانه:

يقول تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1]. يُعبرِّ القرآنُ عن العوالم المحيطة بالإنسان بالآفاق، وعن عالَمِ داخلِ الإنسان بالنَّفس أو بالأنفُس.. وهذه الدَّعوة للتأمُّل في النفس (في الوجدان والضمير الحي) يَعتبرها مصدرًا للمعرفة وصولاً لكشف الحقيقة.... وللفيلسوف الألماني «كانت» جملةً شهيرة مُهمة، كُتبت على شاهدة قبره، وهي: «شَيئان يُثيران إعجابَ الإنسان بشدّة: أحدُهما السَّماء المليئة بالنُّجوم فوق رؤوسنا، والآخرُ الضَّمير والوجدان المُستقِرُّ في باطننا».

ثالثًا- مقولة «عليكم بدين العجائز»[2]:

تأتي مقولة «عليكم بدين العجائز» -المنسوبة إلى النبي محمد (ص)- لتكون من المُستَمسكات والمؤاخذات التي يتحدَّث عنها (وتَلوكها ألسِنةُ) بعض مُنكري الغيبِ ومسائل ما وراء الطبيعة، مع أنها لم ترد في نصٍّ تاريخي في أي مصدر من المصادر والمظان التاريخية لدى السنة أو الشيعة.. ولكنها مع ذلك لاقت رواجًا لدى بعض الجُهَّال... ويُفسِّر الشيخ (محمد اللاهيجي) في شرحه لهذه المقولة «عليكم بدين العجائز» قائلاً: إنَّ هذه المقولة تنظر إلى التسليم والتعبُّد في الفروع، لا في الأصول، فتَعني تنفيذَ الأوامر تعبُّدًا كما تفعل العجائز، ولا تَعني أن يكون المستوى الفكريُّ والعقليُّ في معرفة الله على حدِّ مستوى أفكار العجائز، فنتصوَّر

1 - سورة فصلت/53.

2 - م.س.، ص.ص.535-539.

الله كحزمةٍ من النور في أعالي السماوات، ونَمنحُه صورةً بشرية، ونَصِفُه بما نزَّهَه القرآنُ من صفات.

أمّا (الروميُّ) فيُفسِّر المقولةَ المُتقدِّمة تفسيراً آخر، تَرتكز على معنى «العجز»، وقرَّر أنَّ المقصود هو سلوك سبيل العجز والمسكنة في طريق معرفة الله، حيث الانكسار والعجز هو الزّاد في هذا الطريق، أمَّا سوق التَّظاهر وحبّ الظهور فيقع على الجانب الآخر.

والقصة هي أنَّ النبي الكريم (ص) مرَّ مع أصحابه على عجوز تَغزل بمغزلها، فسألها: كيف عرفتِ اللهَ؟ فحرّكت مِغزَلَها بقوّة، وصَمَتَت، حتى توقَّف عن دَورته، ثمَّ قالت: بهذا عرفتُ اللهَ، فكما أنَّ المغزل يحتاج إلى يدٍ تُحرِّكُه، يحتاج الكون العظيم إلى يدٍ قادرة تُحرِّكه باستمرار، حينئذٍ قال الرسول الأكرمُ (صلى الله عليه وآله وسلم): «عَليكُم بدينِ العَجائِز».

وبالاستناد على هذا النَّقل تكون العجوزُ قد طَرَحَت، بفِطرتها ولغتها الساذجة، بُرهانَ المُحرِّك الأوَّل الأرسطي، وسارَت -بوجه من الوجوه- على نفس طريق إبراهيم (ع): ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

1 - سورة الأنعام/76-79.

رابعًا- نظرية العرفاء:

وهناكَ فريقٌ آخَرُ يَرى ويعتقد أن طريق القلب هو الوحيد الذي يُشكِّل مَعبرًا مضمونًا إلى الباري -عز وجل-، وهو الهادي الوحيد في فيافي هذا المَسير، فالسُّلوك القلبيُّ وحدَه موضع اطمئنانِ هؤلاء لا السُّلوك العقلي، والعُرَفاء يدافعون عن هذه النظرية[1].

خامسًا- ترجيح القلب لا إلغاء العقل:

يَعتقد العُرَفاءُ أن الشُّهود هو السبيل الوحيد الأسلَمُ والأضمَنُ للمعرفة، معرفةِ الخالق والخلق والمخلوق.. وهذه الطريق لا تُلغي الطُّرُقَ الأُخرى، العقليةَ البُرهانية وغيرها، بل تُرجِّح طريقَ القلب والسلوك الروحي والقيام بالمجاهدات الرياضية بكل ما فيها من إشراقات روحية وفيوضات معرفية، التي هي لون من ألوان الوصول والتذوُّق. وهذا الفيض من المعارف الذوقية تدفع الإنسان العارف إلى العمل والنشاط، وتُحوِّلُه إلى كتلة مُتألِّقة من السعي الدائم الذي يتحرَّك فيه العارف لنيل رضا الله، وهذا اللون من المعرفة يُنوِّر الوجودَ الإنسانيَّ، ويَمنحُه طاقة ونشاطًا وحبًّا، ويُشيع في هذا الوجود خشوعًا ورقَّةً ولطفًا..

ومِن ثَمَّ يَخلُقُ تغيُّرًا وانقلابًا في جميع أرجاء هذا الوجود. على أنَّ ترجيح أحد الطريقين على الآخر -من وجهة نظرنا- عملٌ غيرُ مُجدٍ، فكلُّ واحد منهما يُكمِّلُ الآخَر، والعارفُ على كلِّ حال لا يُنكِرُ قيمةَ الطريق

1 - أنسنة الحياة في الإسلام، الإنسان والإيمان، م. س، ص524.

الاستدلالي. ومن هنا، لا نجد حاجة هنا لتناول نظرية هذا الفريق[1].

سادسًا- نظرية أهل الحديث:

ظهرت في تاريخنا الإسلامي تياراتٌ وجماعاتٌ فكرية كثيرة، كلٌّ واحدة منها كانت تُحاول اكتشافَ المعاني وتُقدِّم إجاباتٍ على كثير من الأسئلة المُتعلِّقة بالكون والعالَم والحياة، ومن هذه التيارات والجماعات جماعةُ أهل الحديث، ممَّن اعتقدوا أنه من الصَّعب فَهمُ أخبار السَّماء والكون والوجود بالعقل والفلسفة والتأويل وغيرِه، فهذه الأمور محصورةٌ بأهل السماء، أي إنَّ اكتشافَ أخبار السماء يأتي فقط من خلال وعن طريق السماء ذاتها. فلا معرفةَ حقيقية لنا عن صفات الله، سواء الثُّبوتية منها أو السَّلبية.. فعُقولنا بسيطة محدودة، والله مُطلَق غيرُ محدود.. فلا يُمكننا بعقولنا فقط معرفتُه، خاصةً أنَّه موجودٌ مُطلَقٌ لا خالقَ له، ولا يُمكن بعقولنا أن نَفهم أنَّ الله واحدٌ أو مُتعدِّد، بسيطٌ أو مُركَّب، جسمٌ أو غيرُ جسم، له جوارحُ بنحو من الأنحاء أو لا، نائم أو يَقظٌ، مُتحرِّكٌ أو لا!.. ولهذا يجبُ -بحسب رؤية وقناعة هذا التيار- التَّسليمُ الكامل والتعبُّد الكامل، وعدم السَّعي العقلي للتحقيق والبحث والاستقصاء.. فكلُّ بحثٍ أو استفهام في هذا المجال بِدعةٌ، ومُحرَّم من وجهة نظر الإسلام، ويُدافع عن هذه النظرية الأشاعرةُ والحنابلةُ الذين يُطلِقونَ على أنفسهم «أهل الحديث»[2].

1 - م.س.، ص.ص.525-526.

2 - م.س.، ص.ص.524-525.

● **تحليلُ ونقدُ نظرية «أهل الحديث»:**

يُقدِّمُ العلماءُ والحكماء الإلهيُّون الإجابةَ التالية على هذا التيار الحَديثي:

لا شكَّ بأنّ أخبارَ السماء يجبُ أنْ تُسمَعَ من السماء وأهلها، ولكن نلاحظ ما يلي:

أولاً- إنَّ العقل الذي أكرمَ اللهُ به الإنسان هو فعاليةٌ سماويةٌ وقوة سماوية وليست أرضيّة، وهذا ما جاءنا عبر الروايات والأحاديث، فقد جاء عن عبد الله بن سنان، قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ الصَّادِقَ عليه السلام. فَقُلْتُ: الْمَلَائِكَةُ أَفْضَلُ أَمْ بَنُو آدَمَ؟ فَقَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ رَكَّبَ فِي الْمَلَائِكَةِ عَقْلاً بِلاَ شَهْوَةٍ، وَرَكَّبَ فِي الْبَهَائِمِ شَهْوَةً بِلاَ عَقْلٍ، وَرَكَّبَ فِي بَنِي آدَمَ كِلْتَيْهِمَا، فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتَهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَ شَهْوَتُهُ عَقْلَهُ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ»[1]. ولهذا، لا يوجد أيُّ عائق أو مانع في أن يحاول هذا الإنسان التعرُّفَ (عن طريق ومن خلال هذه القوّة السماوية) إلى بعض تلك القضايا المُتعلِّقة بالحقائق السماوية. ونقول بعضَها لا كلَّها، لأنه غير قادر على إدراك الكلِّ، ولهذا هو محتاج للوحي السماوي.

ثانيًا- لدى مراجعتنا للنصوص الإسلامية (قرآنية وحديثية) نجد أن هناك الكثير الكثير من النصوص والروايات والأحاديث عن المسائل

1 - محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، إيران/قم، الطبعة الأولى، 1987م، ج15، ص209.

والحقائق السماوية، فما الغاية منها؟ ولماذا طرحها الوحيُ على الرسول الكريم؟ ألا يعني طرحُها أنه يُعطينا دروسًا لكي نتفكَّرَ ونتأمَّلَ؟ أليست دعوةً للاستلهام والاستكشاف، وإثارة دفائن العقول لِوُلوج ميدان الإلهيات الواسع والشاسع؟ بالتأكيد ليس الهدفُ التقليدَ والمحاكاة، وليس الهدفُ قبولَ أفكار وألغاز وروايات من دون تفكُّر وتعقُّل وبتسليم أعمى..!!.

سابعًا- الوحي وأهمية استعمال العقل:

هناكَ شكلان أو مجالان للقضايا التي يتمُّ طرحُها من خلال الوحي:

النَّوع أو الشكل الأوَّل: مجموعة وصايا وتعاليم وأحكام ليس المطلوب معرفتَها، بل يجب التعبُّد بها والانقياد لها، لا السعي لمعرفة أسرارها، كونها بعيدة عن حدود عقول البشر.

النوع الثاني: مجموعة قضايا نظرية ذات أبعاد عقائدية تُعالِجُ مواضيعَ معرفة الله وصفاته الثُّبوتية والسَّلبية، وعالَمِ ما قبل الخلق وما بعده، وماهية الوجود، والعلة والمعلول، والوحدة والكثرة، والظاهر والباطن، وغيرها كثير، مما ورد في القرآن الكريم، وعلى لسان أئمّة الدِّين، عبر الحديث أو الخطب أو الدعاء أو الاحتجاجات.. وقد توسَّعَت كتبُ التراث الدِّيني في الحديث عنها وكيفية معرفتها والاستدلال العقلي عليها..

لقد استعمل القرآنُ الكريم نفسُه الأسلوبَ البرهانيَّ للاستدلال على بعض الأفكار، نظير قوله -تعالى-: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾[1].

1 - سورة الأنبياء/22.

وقوله -تعالى-: ﴿**مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ**﴾[1].

لقد توسَّع المُتكلِّمونَ والحُكَماء والعُرَفاءُ المسلمون في الحديث عن الذات الإلهية وصفاتها، ومجمل ما يتعلَّق بها من مسائل فلسفية وكلامية، وفقًا لمناهج جديدة واستدلالات وبراهين مُبتكَرة إبداعية يمُكِن فَهمُها ووَعيُها وإدراكُها واستيعابها عقليًّا وذَوقيًّا.. جاء في الأثر عن علي بن الحسين (ع) أنّه سُئِل عن التوحيد، فقال: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عَلِمَ أنَّه يكونُ في آخر الزمان أقوامٌ مُتعمِّقون، فأنزل الله -عز وجل- ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾[2] والآيات من سورة الحديد إلى قوله ﴿**عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[3] فمن رامَ وراءَ ذلك هلكَ»[4].

ومن اللاَّفت للنَّظر أنَّ النظريات الفلسفية والعرفانية الدقيقة أثبتَت أنَّ آيات ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾، وآيات سورة الحديد تمُثِّل القِمّة القُصوى للتوحيد[5].

وبالعَودةِ قليلاً إلى الوراء، فقد أفضَت النِّقاشاتُ الفِكريّةُ والكلاميةُ إلى ظهور تيَّارَين مُتنازعَين عند جمهور السُّنة، اختلفا في موضوع البحث فيما وراء الطبيعة، التَّيارُ الأوَّلُ هم أهلُ الحديث (الحنابلة مثلاً)، الذي ركَّز

1 - سورة المؤمنون/91.

2 - سورة التوحيد/1-2.

3 - سورة الحديد/6.

4 - الكافي، م.س، ج1، ص19.

5 - أصول الفلسفة والمنهج الواقعيّ، م.س.، ج2، ص.ص. 526-531.

أصحابُه وأتباعُه على النصِّ، وضرورةِ التَّمسُّك به.. أما الفريق الثاني فهم أهلُ الاعتزال (المعتزلة) الذين أكَّدوا على العَقلِ مُطالبينَ بضرورة البحث والتعمُّق في هذه المسائل الكلامية والعقلية والعرفانية[1]. ومَن يُراجع سِيرةَ الرَّسول الكريم (ص) وأهل البيت الكرام (ع) فسيجد كثيراً من الأحاديث التي لا تمنع الاستفسارَ والسُّؤالَ عن هذه القضايا الكلامية والعقائدية وغيرها، ولم يَعتبروا أن السُّؤال عنها بِدعةٌ، بالعكس كانوا يحثُّون الناسَ على ضرورة استعمال العقل في كلِّ شيء.. وقد طُرح عليهم الاستفهام حول آية ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾[2]، ونقل الصدوق والكليني في التوحيد والكافي أحاديثَ كثيرة في هذا المجال[3].

والمؤسف حقًا أن يَنتشر في القرون الأخيرة منهجُ «أهل الحديث» بينَ الشِّيعة أيضًا، فقد ظهر فريق في أوساط الشِّيعة يَسِمُ كلَّ تفكير وتعمُّق في المعارف الإلهية بالبِدعة والضَّلال، على يمُثِّل هذا النهجُ انحرافًا عن سيرة أئمّة الشيعة الأطهار.

على أنَّ هذه الظاهرة في أوساط الشيعة مَحدودةٌ، ولا يمُكن أن نعدَّها بنفس الشدّة والشيوع الذي ساد أوساطَ غيرهم، لكنَّ حجمَها -على أيِّ حال- أزعجَ المُحقِّقينَ في القرون الأخيرة، وقد سَئِم صدرُ المتألِّهينَ (الذي عاش قبل أربعة قرون) من هؤلاء، وقال في مقدِّمة الأسفار الأربعة:

1 - أصول الفلسفة، م. س.، ج2، ص 532.

2 - سورة طه/5.

3 - أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، م. س.، ص533 (بتصرّف).

«وقد ابتُلينا بجماعةٍ من غاربي الفَهم، تَعمشُ عيونُهم عن أنوار الحكمة وأسرارها، تكِلُّ بصائرُهم كأبصار الخفافيش عن أضواء المعرفة وآثارها، يَرَونَ التعمُّقَ في الأمور الرَّبانية، والتدبُّرَ في الآيات السُّبحانية بدعةً، ومُخالَفةَ أوضاع جماهير الخلق من الهَمج الرِّعاع ضَلالة وبِدعة، المُتشابِهُ عندَهُم واجبٌ، والمُمكِنُ والقَديم والحادِثُ لم يَتعدَّ نظرَهم عن طور الأجسام ومساميرها...»[1].[2]

■ المبحث الخامس- أهمّ آثار الرؤية الكونيّة الإسلاميّة

أولًا- أهمية الإيمان الدِّيني في حياة الإنسان:

لا يُمكن للإنسان أن يعيش حياته الدُّنيوية بسلام وازدهار، ولا أن يُحقِّق أعمالًا ناجحة ومُثمرةً على صعيده الفرديِّ والمجتمعي والحضاري، من دون أن يملك فكرًا حضاريًّا مُنفتحًا، وغايةً جمالية إنسانية رفيعة، وإيمانًا عاليًا.. والأفراد والمجتمعات التي تفتقد هذه الأمورَ تراها مُستغرقة في تخلُّفها وأنانيَّتِها ومصالحها الشَّخصية، تعيشُ حالةَ التردُّد والتَّبَعية والإمَّعِيّة الحضارية.

إنَّ الأهداف والغايات النبيلة الكبرى في الحياة تحتاج لإيمان كبير، وهذا الإيمانُ هو الذي باستطاعته بناءُ وصياغة شخصية المؤمن الواقعيِّ

1 - الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، م. س.، ج2، ص5.

2 - أصول الفلسفة والمنهج الواقعيّ، م. س.، ج2، ص.ص.534-535.

المُنفتحِ والاجتماعيّ، البعيد عن الأنانية وهيمنة حبِّ الذات والعمل الفردي.. فينطلق هذا الإنسانُ المؤمن ليعمل ويَكدَحَ بوعي وثبات وتضحية، لأنه يعيشُ الإيمانَ بهدف سامٍ ورفيع هو الله -تعالى-، قُدس الأقداس..

نعم، إنَّ التضحية والبذل والعطاء، كقِيم إنسانية راقية، لا تتحقَّق على صورتها الحقيقية الصحيحة وصولاً للبناء والإثمار الحضاري، من دون قُدسِيَّة إيمانيّة، تُحَوِّل الأفكارَ لدى المؤمنين فيها إلى مُحرِّضات وقوى دافعة للعمل والعطاء.. وهذا هو الفرق بين النظرة والرؤية الدِّينية والرؤية والنظرة المادية.. ففي حين يشعرُ الإنسانُ من خلال رؤيته الدِّينية أن علاقتَه بالعالَم والحياة هي علاقة تكامُلٍ وانسجام ومحبّةٍ وسَيرٍ واعٍ ومسؤول إلى الغايات النبيلة، نرى في الجانب الآخر –في الرؤية المادية- أنَّ هيمنة الغرائز وحبّ الذات واتباع الأهواء هي السائدة.. فالإيمان المُرتكِزُ على رؤيةٍ دينيّة يُوفِّر لمعتنقيه صلةً حميمية بين الإنسان والعالم، وبعبارةٍ أخرى هو نوعٍ من التَّناسق بين الإنسان وأهداف العالَم الكُلِّيّة. وأمّا الإيمان والأهداف غير الدِّينيّة فهي نوع من الانقطاع عن العالم، وبناء عالم خياليٍّ داخلي، لا يُؤيَّد بأيِّ وجه من عالَم الخارج.. فالإيمان الدِّينيّ لا يُعيِّن للإنسان سلسلةً من التكاليف المُخالفة لرغباته الطَّبيعية، بل إنَّه يُغيِّر صورةَ العالَم في نظر الإنسان، ويَعرِضُ عناصر بالإضافة إلى العناصر المحسوسة في هيكل العالم، ويُحوِّل العالَم الجافَّ البارد الميكانيكيَّ الماديَّ إلى عالَم حَيٍّ واعٍ ذي شعور. والإيمانُ الدِّينيُّ يُغيِّر في انطباع الإنسان عن العالم والخلقة[1].

1 - أنسنة الحياة في الإسلام، الإنسان والإيمان، م. س.، ص.ص.220-222.

ثانيًا- آثار الإيمان الدِّيني ونتائجه:

للإيمان بالدِّين وقِيَمه، والالتزام بتعاليمه وأحكامه، كثيرٌ من الآثار والنتائج الإيجابية على صعيد الفرد والمجتمع، منها:

- **دور الإيمان في تحقيق السعادة والانشراح:**

1 - يُشعِرُكَ الإيمانُ بالتفاؤل تجاه العالم والمجتمع الذي تعيش فيه، وتُصبح إنسانًا ممتلئًا بالوجود في سعيك للخير والتكامل الحياتي.. إن الإيمان يبعثُ على الإصلاح والتطوُّر وتنمية الذات وَفق قِيَمِ العَطاء والخير وخدمة الناس.. وأمَّا الإنسان غيرُ المؤمن، والذي لا يَقتنع بأهمية الشعور الإيماني المقدَّس في حياته، فهو لن يشعرَ بأيِّ تفاؤل، لأنه سيعيش حالةَ التناقُض، ولن يلتذَّ بالعالم أبدًا. فالعالَم بالنِّسبة إليه كالسِّجن الرَّهيب، ولهذا جاء في كتاب الله -عز وجل-: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكا**﴾[1].. فالإيمانُ سَعةٌ في الحياة، وانفتاحٌ للأرواح، يَحُدُّ من هيمنة الحياة وضُغوطها علينا، صبراً ومصابرة واحتسابًا.

2 - «تنوير القلب»، حيث إن الإيمان العملي الحقيقي يجعلُ للإنسان المؤمن نُورًا يتحرَّك بموجبه في كل ساحات حياته، على عكس الإنسان الفاقد لنعمة الإيمان الذي يعيش اليأسَ وتفاهةَ العيش والفراغَ القاتل.

3 - «الأمل».. وهو لا يَعني العيشَ على أمل الوُصول للغايات بلا عملٍ وسعيٍ وجهد.. بل أن يتفاءَل الإنسانُ ويعيش حالةَ الأمل مع السَّعي

1 - سورة طه/124.

والكدح للحصول على النتيجة الطيِّبة من العمل الصالح الطيِّب. بالنَّتيجة الطَّيِّبة للجهد الطَّيِّب. وهذا السَّعيُ الطيِّبُ المُرتكزُ على الأملِ الإيجابيِّ المُنتِجِ يُباركُه الله -تعالى- ويُحيطه بعنايته طالما أنَّه في سبيل البناء والعطاء وإحقاق الحق والعدل وإشاعة قِيَم السَّلام والخير، يقول -عز وجل-: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ**﴾[1]، ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2].

4 - راحة البال، حيث إن الإنسان المؤمن بالله حقَّ الإيمان، لا يجد أيَّ راحة له سوى في عملِه على رضا الله -تعالى- في كل حركة من حركات وجوده.. فهو يبحثُ عن سعادته بالفطرة، ويَغرق في السُّرور من تصوُّر الوصول إلى السَّعادة، على حين أنَّ فاقِدَ الإيمان يَرتعش من فكرة مستقبلٍ مَشؤوم مَقرون بالحرمان، ويضطربُ ويخاف بشدَّة.

5 - التمتُّع أكثر بعدد من اللذّات التي تُسمَّى باللذّة المعنويّة. ومنها وعلى رأسها لذةُ الإيمان والعبادة.. ولذَّةُ الخشوعِ والخضوع والاستغراق في المعرفة.

- **دور الإيمان في تحسين العلاقات الاجتماعيّة:**

تقومُ الحياة الاجتماعيّة السَّليمة على تقدير واحترام الناس للقوانين السائدة في مجتمعاتهم، والالتزام بها في علاقاتهم، فالعدالة قيمة مُقدَّسة يجب الخضوع لها ولكل مقتضياتها العملية..

1 - سورة محمّد/7.

2 - سورة التوبة/120.

● **دور الإيمان في التخفيف من سلبيات الحياة ومُعوِّقاتها:**

إنَّ حياةَ الناس لا تسيرُ ولا تتحرَّكُ على نسقٍ واحدٍ أو على وتيرة واحدة على الدوام، إذ يُوجَد فيها صعودٌ وهبوطٌ، وفيها الإيجابيات والطِّيِّبات والأمورُ الحسنة، كما تُوجد فيها السَّلبياتُ والقَبائحُ والمعاناة والآلام والكوارث والمَرارات وخيباتُ الأمل، وهذه كلُّها أمورٌ سلبية تُؤثِّر على تطوُّر الإنسان، وقد تمَنَعُ ازدهارَه وسعيَه للبناء والإنتاج والحياة الطيبة، فينبغي التخلُّصُ منها بالوعي والإرادة والإيمان الحقيقي العملي بالله -تعالى-.. حيث إنَّ هذا الإيمان الدِّينيَّ يُثير ويُحرِّكُ في داخل الإنسان قوّةَ الجهاد والسعي والمثابرة على طريق الحقِّ والخير.. ويجعل المرارات حلوةً.. فصاحب الإيمان يَعلم أنَّ لكلِّ شيء في العالم حسابًا، إذا كان ردُّ فعله على المَرارات بالنّحو الإيجابي المنشود، وعلى فرض أن يكون هذا غيرَ قابل للتَّعويض، فهو يُعوَّض بنحوٍ من الأنحاء من قِبَل الله -تعالى-[1].

● **الإيمانُ قاعدة القيم وعلى رأسها قيمتا الصّدق والإخلاص:**

للإيمان آثارٌ إيجابية على سلوك الإنسان، والإيمانُ يأتي من المعرفة، معرفة الخالق عز وجل، وهي معرفة تُؤثِّر تلقائيًّا وبشكل إيجابي فعّال في شخصية الإنسان ومعنوياته وأخلاقه وعلاقاته مع نفسه وغيره..

وتأثيرُ المعرفة يكون على مراتب ومستوياتٍ ودرجات، حيث نجد أن الناس تتفاوت في معرفتها، وبالتالي في محاولاتها تحقيقَ الكمال الإنساني،

1 - أنسنة الحياة في الإسلام، الإنسان والإيمان، م.س.، ص.ص.224-230.

وفي درجة القرب من الله -تعالى-. وعندما نتوجَّه إلى الباري -عز وجل-، لنعبدَه، فهذا يَعني أنَّنا قرَّرنا مُسبقًا أنه هو وحدَه الجدير بهذا العبادة والطاعة، وأننا خاضعون له خضوعًا تامًّا، ويجب أن نُنفِّذَ إرادته ونلتزمَ بقِيَمِه.

وما هو مدى صدقنا فيما نُقرِّره؟ أيْ ما هو مدى استسلامنا لله في أعمالنا؟ وما مَدى تحرُّرنا من الرُّضوخ لغير الله؟ هذا يتوقَّف على درجة إيماننا. ومن المؤكَّد أنَّ الأفراد غيرُ متساوين في صدقهم وإخلاصهم.. فالله -تعالى- جوهَرُ أيِّ عمل وسلوك وعلاقة، ولا يَجوز القيامُ بأي شيء إلا إذا كان لله فيه رضًا.. وهذه الدرجة الرفيعة من الوعي الإيماني العقائدي لا يَصلها إلا القليلونَ ممَّن سمَتْ أرواحُهم ونفوسُهم، حيث لا يَرَون سوى الله وتَجلِّياته، ليصبح العالَمُ والحياة عندَهُم مرآةً يشاهدون فيها اللهَ وتجلِّياته وآثارَه وبديع صُنعه... وهذا الإمام علي (ع) يتحدَّث قائلاً: «ما رأيتُ شيئًا إلّا ورأيتُ اللهَ قبلَهُ ومَعَهُ».

- **العبادة أهمُّ آثار الإيمان وتجلياته:**

لا يُمكن أن تكون عابدًا حقيقيًّا إلا عندما يَستقيم سلوكُك الحياتيُّ ليكون مُعبرًّا عن إيمانك وقناعاتك الإيمانية النظرية.. فالعابد الحقيقيُّ هو الذي يُطبِّق في حياته ما تحدَّث به وناجى ربَّه في عبادته.. ولهذا شرطان أساسيان:

الأوّل: أن تكونَ حرًّا مُتحرِّرًا من كلِّ حاكمية وطاعة لجهة غير الله -عز وجل-.

الثاني: التسليمُ المُطلَق والكامل لِما يُريده الله -تعالى-، وما يَرتضيه لكَ، ويَندبُكَ إليه.

إن العبادة الحقيقية هي جوهرةٌ كُنهُها الرُّبوبية كما عبَّرَ عنها إمامنا الصادق (ع).. وهي تُعطي الإنسانَ المؤمنَ قوةً دافعةً للتحرُّر والتخلِّي عن كل ما لا يُرضي الله، والانطلاق والتحرُّر والتضحية وحبِّ الله وأمره وقِيَمه، والسَّعي مع أهل الحق وخدمة الناس.. فالعمل لله يَعني العملَ للناس، وأنَّ طريق الله والناس واحدٌ، وهو طريقُ المسؤولية والوعي والإيمان الذي يجب أن يُخلِصَ الإنسانُ فيه.. وفي القرآن الكريم كلمة «مُخلِص» -بكسر اللام- تعني الذي يُخلص في عمله لله. وثمَّة كلمة «مُخلَص» -بفتح اللام- وتَعني الفردَ الذي طَهَّرَهُ اللهُ مِنَ الشَّوائبِ وجَعَلَهُ خالِصًا منها. ويُوجد فرقٌ بين الإخلاص في العمل والإخلاص في كلِّ الوجود[1].. ومعرفة الله الواحد الأحد الكامل المُنزَّه من كلِّ عَيبٍ أو نَقصٍ، ومعرفة ارتباطه بالعالم وباعتباره تعالى خالقًا وحافظًا وفيّاضًا وعَطوفًا ورَحمانًا، كلُّ ذلك يبعثُ في أنفسنا دافعًا لاتِّخاذ موقف معينَّ، نعبِّر عنه بكلمة «عبادة»[2].

- **تعريفُ العبادة:**

وتَعني العبادةُ -من جملة ما تَعنيه- الإخلاصَ لله والارتباطَ العميق به، وهو ارتباطٌ يُعبَّر عنه من خلال الطاعة والخضوع له وحده دون سواه.. وأن يكون المرء صادقًا مع ربِّه في سلوكه وسُبُلِ حياته.. والعبادةُ الحقيقيةُ لا تأتي إلا بعد المعرفة الحقيقية، معرفةِ الله -تعالى- باعتباره المَبدأ الوحيد للوجودِ وربَّ جميع الأشياء.

1 - المفهوم التوحيدي للعالم، م.س.، ص.ص.69 - 71.

2 - م.ن.، ص.ص.27-28.

وهنا لا بد من ذكر مقدمتين أساسيتين:

1 - تكونُ العبادة لفظًا أو عملاً. فالعبادة اللَّفظيّة تَعني مجموعةَ القراءات والأوراد التي نَقولها ونلفظها في أركان الإيمان من الصَّلاة وتلبية الحجِّ على سبيل المثال لا الحصر.. وأما العبادة العمليّة فهي الحركات والأفعال التي نُؤدِّيها عند الرُّكوع والسُّجود والقيام في الصَّلاة والوقوف في المشاعر، والطَّواف حول البيت..

2 - تكونُ أفعالُ الإنسان على شَكلين أو نَمطَين، هما أعمال رَمزيّة وأعمال غيرُ رمزيّة. والأعمالَ غيرُ الرّمزية هي التي لا يُراد منها الرَّمز إلى معنًى آخر، بل يُقصد منها تحقيق آثارها الطَّبيعيّة، مثل عمل الفلاّح في مزرعته، وعمل الخيّاط بقُماشه. فالفلاّح لا يُريد من عمله إلاّ تحقيقَ الأثرِ الطَّبيعيِّ للفلاحة، وليس في عمله رمزٌ لشيءٍ آخر. أمّا الرّمزيّة فهي التي تُعبرِّ عن نوعٍ من الأهداف والأحاسيس، كتَحريك الرأسِ علامةً على التَّصديق، أو الانحناء علامة على الاحترام.

أكثرُ أعمال الإنسان من النَّوع الأوّل، وقليلٌ منها من النوع الثاني. وهذا النَّوع الثاني من الأعمال له حُكمُ الألفاظ والكلمات المُستعملة للإعراب عن قَصد مُعينَّ.

بعدَ هاتين المقدِّمتين نقول: إنَّ العبادة، لَفظيةً كانت أم عمليّة، هي عملٌ «ذو معنًى». فالإنسان بأقواله العباديّة يُعبرِّ عن حقائق معيَّنة، وبأعماله العباديّة، مثل الرُّكوع والسُّجود والوقوف والطَّواف والإمساك، يُعبرِّ عن نفس الحقائق التي ذكرَها في ألفاظه[1].

1 - المفهوم التوحيدي للعالم، م.س.، ص.ص.28-29

روح العبادة[1]:

وتكون من خلال:

1 - المداومة على الحمد والثَّناء عليه -تعالى- في صفاته وقِيَمِه..

2 - تَسبيحِه وتَنزيهِه -تعالى- عن كلِّ نقص ومحدودية.

3 - حَمْدِ اللهِ وشكرِه، باعتباره -تعالى- المصدر الأصلي لكلِّ أنواع الخير والنِّعَم والخيرات.

4 - الإقرارِ النَّفسيِّ والرُّوحيِّ والعَمَليِّ الدائم بالاستسلام والخضوع الكامل لله -عز وجل- بلا قيد ولا شرط.

5 - نَفيِ الشِّركِ به. فهو الكامل المُطلَقُ المُنزَّهُ عن كل نقص.

المفاهيمُ الرئيسية:

1. تقوم العقائد والمدارس الفكرية التي يُؤمِن بها ويتبناها الناسُ على أساس نظرتِهم وتَفسيرهم للكون والوجود والحياة. وهذا ما اصطُلِحَ على تسميته بـــ «التصوُّر أو الرُّؤية الكونيَّة».

2. يقسم الحكماءُ والمتكلمون الحكمةَ إلى: الحِكمة النَّظريّة والحكمة العمليّة. وتَعني "الحكمةُ النّظريّة" وعيَ وفهمَ الكون كما هو موجود وكائنٌ، والحِكمةُ العَمليّة تَعني فهمَ السُّلوكِ الحياتيِّ كما يَنبغي أن يكون ويوجد.

3. "الرُّؤية الكونيّة" هي معرفة الوجود والكون، وهذا يَعني أنها

1 - المفهوم التوحيدي للعالم، م.س.، ص.ص. 29-30.

ترتبط جوهريًّا بمسألة المعرفة، والمعرفة من مُختصّات الإنسان الكائن الحيِّ العاقلِ المُكرَّم.

4. تتوزَّعُ الرُّؤى الكونية باتجاه ثلاثة أقسام وفروع هي: الرُّؤية العلميّة والرؤية الفلسفيّة والرؤية الدِّينيّة. والرؤية العِلمية تقوم على التَّجربة والحِسِّ، لهذا نقول عنها "رُؤية تجريبية"، حيث يتمُّ من خلالها تفسيرُ أيَّةِ ظاهرة مادية حولنا من خلال وضع فرضيّة ما حولها، ثمّ يتمُّ إدخال هذه الفرضية إلى المختبر لِيَجري فحصُها والقيام بالتَّجارب العمليّة حولها، فإنْ أيَّدتها التجربةُ، تَتَّخذ الفرضيّةُ صِفةَ المَبدأ العلميِّ أو الحقيقةِ العلمية.

5. هناكَ ثغراتٌ ونقائصُ يمُكن أن تَعتري الرُّؤيةَ التجريبية، لعلَّ من أهمّها محدوديّتَها، وتَزلزُلَها، وعدمَ رسوخها وثباتها، مع اقتصارها على الجانب العَمَلي دون النظري.

6. ترتكز الرؤية الكونية الفلسفية على مجموعة مبادئ عقلية، من أهمِّها: أنّها بديهيّة، لا يمُكن للذِّهن أن يُنكِرَها. وأنَّها عامّة شاملة، وأنَّها تتَّصف بالثبات، والحسم والجزم.

7. تكون الخصائص والسمات الرئيسية للرؤية الكونية الصحيحة وفقًا للآتي:

أ- قدرتُها على وضع معالجاتٍ وإجابات حقيقية على القضايا والمسائل الأساسيّة للعالم والوجود.

ب- أن تكونَ المعرفةُ المقدَّمة من قبلها ثابتةً موثوقة ودائمة، لا معرفة مؤقّتة عابرة متزلزلة.

ج- أن تكون لها قيمة معرفية نظريّة كاشفة عن الواقع.
د- قابليتها للإثبات والاستدلال استنادًا للعقل والمنطق.
هـ- أن تعطي حياة الإنسان المعنى والغاية والهدفية، بَعيدًا عن العبثية واللا جدوى.

8. تتميَّز الأيديولوجية والنظرية الكونيّة الإسلاميّة عن غيرها من الرُّؤى والتصوُّرات والأيديولوجيات الكونية الأخرى بكونها مُنطلِقةً من جوهر الوجود وأصله وخالقه، وهو الله -تعالى-.. فهذا هو المبدأ الأصل والمحور الأساسُ لكلِّ شيء في الوجود والحياة.

9. يُمكِنُ للإنسان في نظر القرآن الكريم أن يُسخِّرَ كلَّ ما في هذا العالم من قُدرات وطاقات، كما يُمكنه العُروجُ إلى أعلى عِلِّيينَ، أو قد يَهبِطُ ويَنزل إلى أسفل سافلين.. أي أنه هو الذي يُقرِّر مصيرَه، لأنه حرٌّ مختار.

10. الإنسانُ خليفةُ الله في الأرض، وهو مخلوقٌ اصطفاه الله وأكرمه بالعقل والهدى. وحتى يكون هذا الخليفة المستأمن قادرًا على البناء الحضاري المُثمِر والمُزدهِر، يَجب أن يلتزم بكل ما يُرضي اللهَ -تعالى-، وأن يَنعكس إيمانُه بالله في كلِّ ما يتعلق بحياته الخاصة والعامة.. وفي حال لم يلتزم سيُعاني ويَضطرب في كل مسيرة، ولن يَسموَ ولن يَهدأَ إلاّ في حضرة القُدسِ الإلهيِّ.

11. يَقوم مجملُ البناء التوحيديِّ الإسلامي على أساس وجود عالَمَينِ: عالَمِ الغَيبِ وعالَمِ الشَّهادة.

12. تكونَ العلاقةُ بينَ عالَمِ الغَيبِ والشَّهادة تكامُلِيَّةً لا انفصالَ فيها..

13. من الصعب جدًّا تصوُّر أو توضيح ماهية وطبيعة الارتباط القائم بين عالَمَي الغيب والشهادة وفقًا لمعايير مادية جسمانية.. ونَستطيع أن نُمثِّل لهذه العلاقة بأنَّها مثلُ علاقةِ الأصلِ بالفرع، أو علاقةِ الشَّخصِ بظِلِّه، أي إنَّ هذا العالم انعكاسٌ لذلك العالم.

14. الآخرةُ عالَمٌ قائمٌ بذاته يحصل فيه الإنسانُ على نتائج عمله في الدُّنيا.

15. العقلُ يدلُّ الإنسانَ ويُرشِدُه إلى التَّفكير الأعمَق، ويَجعلُه يصلُ إلى حقيقة أن الوجود ليس محصورًا في الظواهر المادية النسبية المحدَّدة والمَحدودة، والتي تتغيَّر وتتحوَّل باستمرار.

16. الله -تعالى- هو عِلَّةُ الخلق والوجود، وهو المُحرِّكُ الأوَّلُ، ليس له شَبيهٌ ولا مَثيل ولا نَظير، لا شريكَ له، ومُحالٌ أن يكون له شريكٌ.

17. الموجودُ اللا مُتناهي لا يَقبلُ التَّعدُّدَ والكثرة.. والموجودُ المَحدودُ كالإنسان يُمكِنُه اتِّخاذُ شُرَكاءَ ونُظَراءَ، بالتالي يَقبل الكَثرةَ والتعدُّد.

18. العالَم الماديُّ الذي نعيش فيه هو مجموعة من الظواهر والحقائق القائمة الموضوعيّة التي يُمكِنُ للإنسان إدراكُها عبرَ حواسِّه، وتتميَّز بعدة سمات وخصائصَ، كالمَحدودية، والتغيُّر والتبدُّل، والتحوُّل، وعدم الثبات، والتعلُّق والارتباط، الحاجة، النسبية.

19. الإسلامُ دينٌ يُؤمن بالمنهج العقلي، وهو منهج الواقع الموضوعيِّ، ويَدعو للمحبة والتسامُح وقبولِ الآخَر، ويرفض كلَّ ألوان

وأشكال التعصُّب والتطرُّف والعناد والتَّقليد الأعمى، كونها تتناقَض مع جوهر ما يَدعو إليه من التَّسليم بالحقائق والواقعيّات.

20. وردت آياتٌ قرآنيةٌ كثيرة تدعو إلى ضرورةِ الاستكشاف والتأمُّل في آفاق الحياة والطبيعة، والنظر العقلي والعلمي في أحوال الأمم والحضارات والأقوام الماضية، كما تَدعو للنظر في أحوال النفس الإنسانية كمصادر أساسية للتفكير الإنساني من أجل الوصول إلى الحقيقة.

21. العرفان طريقٌ من طرق معرفة الله، ولهذا الطريق شروطُه ومعاييره الروحية والنفسية والقلبية (الإخلاص والرياضات الرُّوحية والزُّهد الحياتي) التي يَعتقد العُرَفاءُ أن الإنسان يَمتلكُ بوساطتها القدرةَ على السَّير نحو الملكوت الأعلى. وينتقد العُرَفاءُ الاستدلالَ العقلي، حيث يعتبرونه متزلزلًا، ولا يُمكن الاطمئنانُ به. ولكنَّهم مع نقدهم لخطِّ العقل، فإنهم لا يُنكِرون أهميةَ وقِيمةَ الطريق العقلي البُرهاني.

22. هناك فريق ظهر في تاريخنا الإسلامي، وما زالت آثارُه باقية، وهو فريق "أهل الحديث"، حيث يرى هؤلاء أن المعرفة الحقيقية تتجسَّد فقط من خلال الأحاديث التي هي لوحدها تَشرَحُ وتُبيِّن للناس كلَّ ما يتعلَّق بقضايا الدِّين المَجهولة للبشر. بما يعني أن الإسلام يقوم -بحسب رؤيتهم- على التَّسليم المُطلَق، والتعبُّد الكامل، وليس على أساس التحقيق والبحث.

23. خضعت رؤية ونظرية «أهل الحديث» لكثير من النقاش والتحليل، وقد ردَّ عليها العلماءُ والمتكلمون قائلين، بأن الإنسان قادرٌ

على المعرفة لأن الله أعطاه العقل ومنحَه القوّةَ العاقلة، وهي قوةٌ لا شكَّ قادرةٌ على التقصّي والاستكشاف والمعرفة.

24. الدِّين الإسلامي ينتقد في كلِّ نصوصه (تدبَّروا - اعقلوا – يتدبَّرون – يعقلون - و...إلخ) التقليدَ الأعمى لِسُنَّة الآباءِ والأجداد، ويَرى بأنه لا يجوز التَّقليد في العقائد وأصول الدِّين بأيِّ شكل من الأشكال.. وهذا دليلٌ واضح على أنَّ الإسلامَ يَعتقِدُ بوجود إمكانية للقوة العاقلة للكشف عن الحقائق السماوية في حدود أصول الدِّين.

25. من أجل التفكير والاستلهام. فما الهدف من طرحها إذا لم تكن قابلةً للتعقُّل والتدبُّر؟!

26. كان الرسول الكريم (ص) وأهل بيته الكرام (ع) يدعون لإثارة دفائنِ العُقول واستعمالها في كل خيرٍ فكريٍّ وعمليٍّ وإنساني.

27. الإيمانُ الدِّينيُّ هو السبيل الأوحد والأهم لبناء وصياغة الإنسان المؤمن المُضحِّي القادر على البذل والعطاء لوجه الله -تعالى-.

28. ومن نتائج وآثار الإيمان بالله -تعالى- "تَنوير القلب"، و"الأمل" و"التمتُّع أكثر باللذّات المعنوية" والإحساس بها.

29. الإيمانُ الدِّينيُّ يبعث في نفس الإنسان المؤمنِ قوّةً معنويةً جهاديةً، ويجعل مرارات الحياة حلوةً.

30. إنَّ معرفة الله لا تأتي كلُّها دفعةً واحدة، بل هي على مستوياتٍ ومراتبَ ودرجاتٍ.

31. المؤمن الحقيقيُّ هو العابد الذي تحرَّر من كلِّ حاكمية وطاعة لجهة غير الله.

32. التوحيد الإسلاميُّ يقوم على الإيمان بالله الواحد الأحد، ويعتبر أن مسيرة الإنسان التكاملية في الحياة ستُفضي إلى حقيقة الاتجاه نحوه -تعالى-.

33. العبادةُ ارتباطٌ وثيق وعميق بالله -تعالى-، وخضوعٌ كامل لمشيئتِه وإرادته، ولا تتحقَّق إلا بالعمل والطاعات.

المَصَادر والمُراجِع

1 - القرآن الكريم.

2 - صدر الدِّين الشيرازي، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، دار إحياء التراث العربي، لبنان/بيروت، 1981م.

3 - محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001م.

4 - محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت، إيران/قم، الطبعة الأولى، 1987م.

5 - محمد حسين الطباطبائي، أصول الفلسفة والمنهج الواقعيّ، تقديم وتعليق: الشهيد الشيخ: مرتضى مطهري، دار المحجة البيضاء، لبنان/بيروت، 2017م.

6 - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الأعلمي للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان/بيروت، 1973م.

7 - محمد باقر المجلسي، بحار الأنوار، دار إحياء التراث العربي، لبنان/بيروت، الطبعة الثانية، 1981م.

8 - محمد بن يعقوب الكليني، تحقيق: علي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، إيران/طهران، الطبعة الرابعة، 1984م.

9 - مرتضى مطهّري، أنسنة الحياة في الإسلام، الإنسان في القرآن، دار الإرشاد، لبنان/بيروت، الطبعة الأولى، 2009م.

10 - مرتضى مطهري، المفهوم التوحيدي للعالم، دار التيّار الجديد، لبنان/بيروت، 1985م.

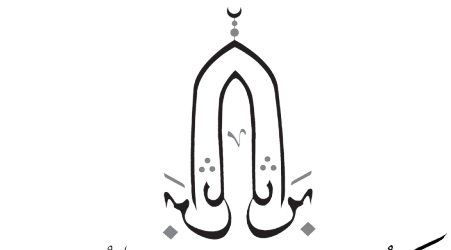

مركز بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والانساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصا في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والإجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجِدة؛ سعيًا للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدّمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

في هذا الكتاب

يُعالجُ كتابنا هذا أهم معالم وخصائص العقيدة الإسلامية المستندة أساساً لطبيعة الرؤية الكونية الإلهية.

يتألّف الكتاب من فصلين، ويتضمّن كل فصل عدّة مباحث؛ ففي الفصل الأول تحدّث الكتاب عن مَعنى الدّين وسُبُل الوُصول إليه، مميزاً بين عدّة رؤى فكرية تخصّ موضوع معرفة الكون والوجود، وكيفيّة البحث عن الدّين وماهيته والدوافع العامة للبحث عنه.

يركّز الكتاب في مبحث آخر من هذا الفصل على الرؤية الكونيّة الدينية في أصولها ومعالمها السماويّة القائمة على الإيمان باللّه الواحد، والإيمان بالنبوّة، والإيمان بالآخرة. وفي الفصل الثاني يتطرق الكاتب إلى معنى العقيدة والرؤية الكونيّة، في طبيعتها وأهم مذاهبها، ويتحدث عن ثلاثة أنواع من العقائد الكونيّة، هي: الرؤية الكونيّة التجريبيّة، والرّؤية الكونيّة الفلسفيّة، والرّؤية الكونيّة الدّينيّة، معتبراً أن الرؤية الدينيّة أشمل وأعم وأهم من الرؤيتين الفلسفية والمادية، وباحثاً في طرق الوصول إليها، مع أهمّ آثارها ونتائجها على صعيد الفعل والحضور الحياتي الإنساني، وفاعليته المجتمعيّة كخليفة للّه في الأرض، اصطفاه اللّه وأكرمه بالعقل والهدى..وحتى يكونَ هذا الخليفة المستأمن قادراً على البناء الحضاري المثمر والمزدهر، يجب أن يلتزمَ بكل ما يرضي اللّه تعالى، وأن ينعكسَ إيمانه باللّه في كل ما يتعلق بحياته الخاصّة والعامّة.

- الدراسة لا تعبر بالضرورة عن رأي المركز -

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد